مخاطر ورحلات

في الجزيرة العربية

برترام توماس

ترجمة

عبد الهادي فنجان الساعدي





اشتريته من شارع المتنبي ببغداد
فـــي 13 / جمادى الآخرة/ 1444 هـ
فـــي 06 / 01 / 2023 م

سرمد حاتم شكر السامرائـــي

مخاطر ورحلات

في الجزيرة العربية

تأليف

برترام توماس

ترجمة

عبد الهادي فنجان الساعدي



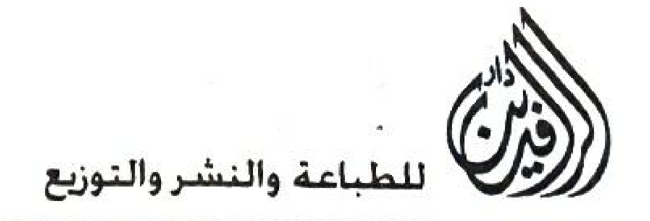




الطبعة الأولى
١٤٣٢هـ / ٢٠١١م



العراق - بغداد - شارع المتنبي
(+964) 07902632131
(+964)07702697982
ahabi88@yahoo.com



لبنان - بيروت ص.ب 25/309 الغبيري
تلفاكس : 541980 1 961+ خليوي ، 03/445510
e-mail ، daralrafidain@yahoo.com

مخاطر ورحلات
في الجزيرة العربية

بقلم

برترام توماس

مع مقدمة

بقلم: سير ارنولد. تي. ولسن

لندن/ جورج الين وانوين لمتد
شارع المتحف



الاهداء

إلى: سمو سلطان مُسقط وعُمان

سير سيد تيمور بن فيصل بن تركي بن سعيد

كي. سي. آي. إي.، سي. إس. آي..

مع شكري الجزيل لأفضاله التي استمتعت بها بين يديه وبقضاء خمس سنين قضيتها في خدمة حكومته.

برترام توماس

المحتويات

مقدمة المترجم

كان لإسهام المؤرخ كامل سلمان الجبوري، الدور الفاعل في انتهاجنا طريق الترجمة (الوعر) الذي سلكناه. وقد قادنا التشجيع والجرأة والحذاقة اللامتناهية للأستاذ كامل أن نتقدم بشجاعة لإكمال الجواب الذي فرضه السؤال في أن القدماء بنوا الأمجاد وقد كتب عنها الأجانب من آثاريين وضباط وسيّاح وأزالوا عنها الغبار، فما الذي فعلناه نحن ؟ إن أقل الفروض تستوجب منا أن نترجم هذه الآثار المكتوبة لشعوب سبقتنا لهذه الاكتشافات لعلها تكون المساهمة الصغيرة إزاء تلكم المساهمات العظيمة للبناء الحضاري.

لم أُعرّب، ولم أُعرّق، لقد حاولت أن أُترجم. حاولت أن أكون أميناً على النص الأصلي بلغته الأم. كما حاولت أن يكون نصي هذا متميزاً في قربه أو بعده عن الكتاب.

تحية مخلصة لكل من ساهم في هذا الجهد البسيط وبالخصوص الأستاذ علي جبار عطية الذي صحح وأضاف وسهر لإنجاز هذا النص.

تحية أخرى إلى «مؤسسة مصر مرتضى للكتاب العراقي» التي بدأت برفد الشارع الثقافي بكل إنجاز يخدم الحقيقة ويخدم الثقافة.

عبد الهادي فنجان الساعدي





المغامرة الأولى

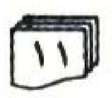
حملة تأديبية ضد عرب الهور

المقدمة:

تحتفظ الجزيرة العربية بمدى غير اعتيادي لقوة إخضاع القلوب. أن أولئك الأوربيين الذين عاشوا هناك،غالبا ما يجدون أخطاءً وعيوبًا في السنوات القليلة الأولى، لقد جلبوا معهم الساعات وملابس المساء فضلاً عن مذاقهم المكتسب أو الموروث للأكلات الأوربية في ساعات معينة، للمشروبات الباردة، الصحف، السيارات، التلفونات، ومتعاً اجتماعية ومتطلبات الألعاب، مع كرات من مختلف الأحجام، ولحد الآن فالكثير منهم من يبقون مدة طويلة..أو يتركونها-لابد من أن يتذكروها، وسيأتي الوقت الذي يشعرون فيه بان مواد التسلية هذه هي مجرد تقاليد، وقد حان الوقت للرجوع إلى طرق ابسط في العيش.

عندما يفكر هؤلاء بالجزيرة العربية فلهم في بعض الأحيان وجهة نظر معينة، وفي أحيان أخرى وجهة نظر مغايرة تسيطر على أفكارهم. الطالب يشعر بمتعة عندما يجري بحوثه في: اللغة،علم الآثار والتي مازالت الجزيرة العربية تعرفها أما ما يفكر به أتباع لاينيوس[1] فبالطيور التي لا تحمل أسماء، والتي تتماثل، الحيوانات، الزهور، والتي مازالت لحد الآن لم تحتوها قارة. المسافر في شوق إلى اجتياز ورسم خارطة لقسم من مناطق الجزيرة العربية التي لحد الآن لم ترها عيون المستكشفين الرواد الأوربيين وآخرون غيرهم كثيرون يستمتعون بالجزيرة العربية لأنهم يحبون العرب لا لعاطفتهم

كاروليوس لاينيوس (Linnaeus, carolus) كارل فون لاين (carl von Linne) (١٧٧٨م-١٧٠٧م) عالم نباتات سويدي،ترك من بعده نظام التصنيف العالمي للنباتات والحيوانات حيث وضع لها أسماء. ولد في ٢٣ مايو ١٧٠٧م في جنوب راشولت حيث كان والده راعي الابرشية. ظهر حبه للأزهار وتطور في سن مبكرة من عمره وقد سجل له ذلك وهو في عمر ثماني سنوات حيث لقب عالم النباتات الصغير. لقد درس في وكسيو (Wexio)وفي جامعات لوند وابسالا وأخيرًا أصبح مؤهلاً علميًا في الطب. للمزيد من المعلومات راجع ص١٧٣ من:
(Encyclopedia Britannica) volume 14 Encyclopedia Britannica. ltd Chicago London Toronto copyright 1960



نحو الأراضي، أو تفضيل نكهة أو مذاق ما،والتي جعلت من العرب والصحارى الرملية العربية موضوعا لروايات لا تعد في السنوات العشر الماضية، ولكنهم وجدوا أن فيهم الكثير مما يجذب. لقد أدركوا بان العرب قد تطوروا في غضون قرون عديدة، فلسفة، وطريقة حياة بتناغم هارموني مع بيئتهم والتي جعلت من صحتهم الجسمانية والنفسية في اطمئنان دائم.

لم يدم تفكيرهم بان العرب متعصبون وجبريون يؤمنون بالقضاء والقدر ويزدرون التسلية أو حتى يشمئزون من الحاسدين. إنهم مشدودون إلى طريقة حياتهم بإحكام، وميالون إلى أن يلمسوا وأن يتحسسوا الحياة التي تختلف بشكل أساسي عن حياتهم. يستسلمون للحزن وهم في حالة وعي أعمق لفهم حجم العاطفة.

مثل هؤلاء الرجال الأوربيين، غالبا ما يكونون أكبر قليلاً من طلبة مدارس، ثم يتطورون بعد ذلك إلى سفراء حقيقيين من الغرب إلى الشرق.

إن مؤلف هذا الكتاب كان واحدًا من أكثر الضباط السياسيين الشباب الموهوبين الذين خدموا في بلاد مابين النهرين خلال وبعد الحرب،وخدم أيضًا بنفس القدرة فيما وراء الأردن قبل أن يختار ليشغل منصب مسؤول المستشار المالي، ووزيرا لسمو سلطان مسقط وعمان. لقد أظهر شجاعة ودهاء في ظروف صعبة جدا وخطرة خلال وبعد الحرب في بلاد مابين النهرين. إن سجل أعماله في عمان والتي تكون الصفحات التالية لهذا العمل العرضي تلقي ضوءا متواضعا ولكن فوق الاعتيادي، وتثبت أن له أهمية فريدة حقًا.

إنه -كما أعتقد- أول رجل انكليزي استطاع أن يشغل منصب رئيس الوزراء في حكومة عربية مستقلة. بهذه المواصفات استطاع أن ينال الثقة التامة لكل من صديقي السلطان سير سيد تيمور بن فيصل ومجلس الحكومة. إن علاقاته مع قادة التمرد من القبائل العربية في الساحل العماني مكنته من أن ينجز خلال وظيفته رحلتين رائعتين في منطقة لم تعرف تماما إلى الآن.

الأولى كانت من الجنوب الشرقي مـن الجزيـرة العربيـة إلى منـاطق حـدود الربـع الخالي، من قرب منطقة رأس الحد إلى ظُفار «انظر مجلة الجغـرافي آذار ۱۹۲۹». والثانيـة من ظفار إلى مسافة حوالي مائتي ميل في البر "انظر مجلة الجغرافي ۱۹۳۱".

الرحلتان إذا ما أخذناهما سويةً تشكلان أهمية كـبرى ومـساحة واسـعة جـدا مـن الريادة في الاستكشافات الجغرافية واللتان شرع بهما في قسم ما من العالم خلال الحرب.

لقد نشر في مجلة علم اجتماع الإنسان الكبرى (حزيران ۱۹۲۹) بعض الدراسـات التمهيدية حول القبائل التي التقى بها في رحلته الأولى. كما نشر بعض الدراسات المهمة التي تخص لغة الكلام التي يتكلم بها «الكـومزارا» في شـبه جزيـرة «موسـاندام» (مجلـة المجتمع الآسيوي الكبرى- تشرين الاول۱۹۳۰) والمهم على العموم هو مقالته حـول قنة الجبل الخارجة منه والداخلة في البحر. «موساندام» وسكانها القاطنين هنـاك (مجلـة مجتمع آسيا الوسطى، ج ١٥: ۱۹۲۸) وهو في لحظة الكتابة مشغول برحلة استكـشاف ذات أهمية بالغة وذات خطر كبير.

أنا أدعو لهذه الآثار الرائعة و -بكل ثقة- إن تقرأ من قبل من يضع في اعتباره الرغبة كما نضع نحن تلك الرغبة في اعتبارنا من اجل معرفة شيء عن الحياة التي تعيشها اليـوم سلالة هي ليست اقل ذكاء وبراعة، وليست اقل مرحا أو اهتماما منا نحن.

وعندما نقرأ هذه الصفحات فمن المحتمل أن نـرى القوافـل تـسير ونـسمع رنـين الأجراس على الطرق التي تقع فيها وراء المدن وفي الطرق والمنحـدرات الجبليـة، وعـلى حافات الصحراء. من المحتمل أن نرى الفلاحين يعملون في بساتين النخيـل والرجـال المسلحين يجبون الجزية (الضريبة أو الكودة: المترجم)من سكان القرى، مـع قليـل مـن الشعور بتأنيب الضمير، كصياد السمك الشعبي في عملية صيده من البحـر. الـسلطان في قصره، والقبائل تحلب جمالها، كل هذه الممارسات الحياتية تشبه حياتنا إلى حـد كبـير، ومثلنا تماما تشغل بالهم شؤونهم الخاصة، إنهم يعيشون حيـاتهم ويحتفظـون بزوجـاتهم وإذا شاء الله فسوف يكونون عائلاتهم. إذا كانت نشاطاتهم لا تظهر مهمة بالنـسبة لهـم

كما هي لنا، فالسبب لأنهم مستعدون دومًا للتضحية بأنفسهم لبعض الأسباب التي يعتقدون بأنها أكثر أهمية من الحياة نفسها.

إنهم واعون كونهم عربًا وهم فخورون بوطنهم، إنهم أميون، غير متعلمين، ولهذا فهم يتوارثون كل ذلك وما زالوا أحياء ولهم ثقافتهم العامة واعتقادهم العام ولغتهم العامة، كما في كلمات ايكسلسيا ستيكوس الثامن والثلاثين:[1]

إنهم لن يبحثوا عن مجلس حكومي
ولا الجلوس عاليا في التجمع
إنهم لن يجلسوا على مقعد القضاة
ولا يفهمون جمل القضاء
إنهم لا يستطيعون أن يصرخوا بالعدالة والقضاء
ولن تجدهم عند الكلام عن الحكايات الرمزية
ولكنهم سوف يدافعون عن وضع العالم
وكل اعتبارهم هو في احتراف عملهم

أ.تي. ويلسون

أول كانون الثاني ١٩٣١

---

(١) إيكسليسيا ستيكوس (Ecclesiasticus) مختصر (ايكسيليوس) وهو عنوان بديل لكتاب مشكوك في صحته أو في نسبته إلى مؤلفه أو بطريقة أخرى يدعى «الحكمة عند المسيح ابن ساراش» والكلمة اللاتينية إيكسليسيا ستيكوس تعني: «كنسي» ومن المحتمل أنها تستعمل في أي كتاب يقرأ في الكنيسة أو أي شخص يستلم إقرارًا كنسيًا. اسم الكتاب ظهر في مستندات متنوعة الأشكال. وللمزيد من المعلومات راجع المصدر السابق نفسه صفحة ٨٩٠.

المحتويات

الفصل الأول

العناد والتصلب

بلاد ما بين النهرين: ربيع ١٩١٨، السنة الأخيرة من الحرب العظمى. الجيش البريطاني اكتسح الأتراك ودفعهم خارج أراضي الرافدين إلى مرتفعات الموصل. السياسة البريطانية كانت مشغولة بإخضاع القبائل العربية في المؤخرة.

كل شيء كان حسنًا في أهوار المنتفك باستثناء خروج شيخ واحد عن الطاعة وهو شيخ قوي، انه بدر بن رميض، وهو شخص مزعج وكان مصدرا ثابتا للقلق.

لقد رافق نجاح الجيش البريطاني تحسن في الموقف القبلي. أما المعارضة القوية التي واجهتنا في البداية في منطقة المنتفك البرية الهائجة[١] فقد كانت تسير نحو الضعف مع تطور الأحداث. ان انسحاب الجيش التركي من نهر الحي، وإكمال سكتنا الحديدية من البصرة إلى الناصرية، والاندفاع الذي كان يمثل مصدر بهجة بالنسبة لنا باستمرار، والعداء الشديد مع الأتراك في الكويت، كان الامتحان المحلي القاسي، ويجب أن نؤكد بان ما أوصل انتصاراتنا إلى أوجها هو احتلالنا لبغداد. أما خلال السنة الماضية فان تمسكنا بمكاسبنا هو الذي عزز مواقفنا.

القبائل (بحواسها التي في عيونها)[٢]، كما في الأمثال السائرة جعل عقولهم تظن بأننا لم نسرف في التضحيات بالدم والمال من أجل لا شيء ولكن كيفما يكون الحال فقد بينا لهم بان وظيفتنا هي حب الغير أنهم يعتقدون بأننا جئنا لنبقى وقد لاحظوا قوتنا، ومن الطبيعي ومن المفرح أيضا بأنهم قرروا أن يتعلقوا بنا بالرغم من نشاطاتهم الليلية وغاراتهم في قوارب الأنهار، وقطع أسلاك التلغراف وسلب القتلى في ميادين المعارك، ستؤخذ هذه كلها بنظر الاعتبار عندما تنظر القضية، لكن ذلك الطور انتهى، إنهم يفكرون في المستقبل وقد اقسموا كلهم، ماعدا رجلنا القديم في الأهوار.



«الطاعة»؟ تساءل بدر الرميض شيخ قبيلة ألبو صالح، والرئيس الأعلى -على الأقل إسميًا- لبني مالك والثالث في تحالف المنتفك الكبير[٣] «الطاعة»؟إنها تعرض لكل الشيوخ في هذه المنطقة المبتلاة بالحرب أما بالنسبة لي: لا، أبدًا».

ثم تحسس بأصابعه بندقيته الموزر من نموذج ١٩١٢م بكل ولع المحارب الصحراوي القديم.

الفوضى وإراقة الدماء، كانت هي السائدة في مناطق الأهوار في أيام الأتراك الأخيرة، وهكذا فان جهودنا كانت تهدف إلى توطيد السلام والنظام وعلى أية حال لم يطل الوقت حتى شعروا بان معيار النظام يجب أن يؤخذ بالاعتبار وبالمقارنة فقد أعطيت الأرض اهتمامٌ اكبر.

الأتراك، على الرغم من الهيبة التي اقترنت بهم لقرون عديدة من الهيمنة السياسية الموروثة بحسب الاعتقاد العام، كانت منذ سنوات الحكم القبلي للسلطان عبد الحميد غير ملائمة لهذه الأماكن. لقد خضع للروح القبلية الهادفة للتمرد أكثر، وللنظام القبلي نفسه والذي كان مضادا في حد ذاته لأهداف وطرق الحكومة السائدة آنذاك وحكومة العرب القومية في العراق اليوم -من المحتمل- أن تتمتع بفترة من الهدوء المريح ولتنظر بعدها فيما إذا كان النظام القبلي سيكون تحت السيطرة التدريجية بموجب التطورات الصناعية وأساليب الحكومة التي أسست على طراز منظم وأفكار تقدمية وكذلك في حالة نمو مؤسساتهم الإدارية المضادة للفوضى ولكن في الوقت الذي آلت فيه متطلبات السياسة طوعا أو كرها كان احتواؤنا للقبائل بهذه الصورة وحاجتنا المهمة في قطر تسيطر عليه القبائل هي الهدوء لكي تكرس قوات جيشنا نفسها لفكرة واحدة وهدف رئيسي هو تحطيم الأتراك.

إن الحالة السابقة هي التي جعلتنا نعتقد أننا سننجزها بشكل جيد عن طريق الهيمنة في السر ومن دون علم عامة الناس وذلك من خلال استدراج الرؤساء التقليديين أو ما يسميهم أهل البلد «شيوخ القبائل». إن الخيار البديل للتجارب المنجزة



مسبقا في الحكومة البيروقراطية وهيئتها من السكان المحليين كانت تعرقل بإجراءاتها النهايات السريعة والتي وضعت بحذر وفي الوقت نفسه كانت هيبتنا كافية لإخضاع القبائل وإجبارهم للدخول في السلم واخذ جانب الهدوء. والقبائل واثقة من بعضها إلى درجة لم يسبق لها مثيل وتمكن أفرادها من أن يبيعوا حبوبهم وتمورهم ويشتروا المواد الأساسية لحياتهم ومعيشتهم بأسعار نادرة وجيشنا الكبير في الميدان حقق لهم في السنوات القليلة التي أعقبت هذنه الحرب ثروة لم يحلموا بها. لقد البسوا نساءهم الذهب الجميل، وسلحوا أنفسهم ببنادق حديثة حصلوا عليها من ميادين المعركة وقد كان موسم الحصاد وافرًا.

أنا مقتنع تمامًا بأنهم لم يفكروا -إلى الآن- بيوم سيأتي قريبا يوجهون فيه هذه الأسلحة إلى مصدر رخائهم وهكذا سيكون وضع تحركاتهم التي ستقودهم إلى الجفاف ثانية والتسلح يشير إلى صفة المفاضلة والشرف عند القبائل العربية. كل قبيلة لها عدوها الوراثي، ثارات قديمة، لطخة عار في شعار النبل بالنسبة لهم يجب أن تمحى أو تزال، وقوفهم الفردي للدفاع أو المحافظة على الحقوق، أما الصنف الآخر من الوقوف فهو للحماية أو للمطاردة. ولقد كان من غير المسوغ أن نفترض إن ذلك النوع من التسلح الشاذ، غير اعتيادي، وإنما هو نابع من رخاء شاذ وغير اعتيادي في هذه الفترة. إن باعثا خفيا خاصا- وفي الحقيقة- تحت ظل اضمحلال وفساد النظام العثماني البطيء الذي شكل تجربته الخاصة هو الذي جعل من كل شيخ قبيلة يضع قانونه الخاص لنفسه. القوة كانت هي الحق، والتفوق في السلاح أصبح بالنسبة للقبيلة هو الهدف الأسمى، ومفتاح المآثر أنه «افتح يا سمسم».

ولكن ماذا عن الشيخ بدر؟

إنه أثر تنكسًا من الكثيرين أمثاله، لقد قضى فترة قصيرة بعيدا عن أهواره في طول عمره المديد، كان ذلك في فترة التحاقه بدعوة الجهاد[٤] لصد الموجه الأولى من غزو البريطانيين عند انتشار الأعمال العدائية، ثم في معركة الشعيبة في ١٩١٥، أقسم أن لا



يهادن وأن لا يعقد حلفًا مع الإدارة البريطانية وظل وفيا لقسمه هذا بعيدا عن نفوذ الحكومة، ولم يعترف بالإدارة البريطانية والآن بعد مضي ثلاث سنوات، هو واثق من موضعه الخلفي المنعزل داخل الأهوار، لقد تجاهل كلامنا وعروضنا للسلام كما احتقر موظفينا ووكلائنا، وأخفى جواسيس الأتراك وعملاءهم.(٥)

وبمرور الوقت أبحنا نحن أثر وأثر توطدًا وثباتًا وقوة فيجب عليه أن يتوقع بأخطاء العصيان والتمرد.

من دون شك لقد حان الوقت الذي يفكر بعواقب أعماله وقد تعدت حدود الإصلاح. إلى هذا الحد، إلى حد عدم قدرته على تصور العالم الخارجي والعالم المسطح الذي يعتقد فيه بان أهواره هي المركز، مع قوة العثمانيين غير الواضحة في التفكير حول حدودهم، من المحتمل أن أثر جنون العظمة في شخصيته يجب أن يعزى إليها تمرده وعناده الأخير.

لقد بدا انه يعدنا قسما من مخلوقات الله الغامضة، كفارا من الذين جاءوا متطفلين وإنه لا يعرف من أين؟ ولا يهتم بأيها ولا أي نجم يجب أن يغرب. كل الشيوخ الآخرين التزموا بطاعة الحكومة، بدر وحده تمسك باخلاصه القديم، إخلاص راسخ لا يتغير بسلطان أهواره وبعودة الأتراك، إذا كان ذلك على وصفهم الغامض في الماضي القريب. انه الوحيد من بين قلة من الشيوخ الذي رفض أن يقبل السلام البريطاني انه الوحيد الذي سيبقى أمامنا متحديًا.

هارولد ديكسون(٦) كان الضابط السياسي لمنطقة المنتفك. في ذلك الوقت كان بدر سبب إخفاقه الوحيد. ديكسون كان يمتلك فهما نفسيا للقبائل العربية ومعرفة بلهجة سكان الأهوار، وكانت تجربته ابعد مما ذهبت في تجربتي. كان لا يضارع في كل القطر وكان يملك حبا حقيقيا ومن المحتمل أن يكون مفرطا لرجال القبائل وأنا متأكد من انه كان يعرف اسم كل رجل وكل امرأة وحتى الأطفال في بعض المناطق ونتيجة لصلابته استحق لقب «أبو رصاص».(٧)



إنه خريج كلية اكستر جامعة اوكسفورد ومن سلاح الفرسان التاسع والعشرين وكان بصفته ضابطا سياسيا رائعا للمدرسة الحرة. لقد جمع عواطف كريمة مع طول اناة، لا يعرف التعب أو الكلل، وقد فاق العرب في مباريات حكاية القصة.

لكن هذه الصفات الناجحة والفعالة لم يقدر لها النجاح للاسف ولم تثبت فعاليتها في التعامل مع الخصم بدر، ولم يستطيعوا ان يجمعوه اكثر من مدة اللقاء مع الرجل الكبير وهذا ما حدث بهذه الطريقة كما اخبرني به بعد ذلك.

لقد قام بجولة في منطقة البحيرة (هور الحمار) بمركبه الحربي ليريهم العلم البريطاني والغرض هو ارهاب العشائر أو استمالتها وبالخصوص استمالة الشيوخ والرؤساء وكان في الحقيقة يرغب في مقابلة بدر، الا ان مبعوثيه جلبوا له رسالة من بدر تقول: "لن اذهب إلى الناصرية، ولكن اقابلك وجهًا لوجه، نعم بكل معنى الكلمة اذا كنت ترغب، في المكان نفسه في بداية السهل غدا عند طلوع الفجر بشرط ان تكون المقابلة من دون حمل سلاح".

هذا بالتاكيد كان تقدما وقد نظر حوله إلى رؤساء القبائل الموالين له، وقد اشاروا عليه بعدم الذهاب مؤكدين وجود نية سيئة في هذا الامر ولكن ديكسون لم يعمل بمشورتهم لانه راى فيها غلقا للباب الذي فتح نصفه، ولذلك قرر ان يذهب.

وذهب لمقابلة بدر في كوخ قائم على احدى الربوات عند الفجر في سهل مفتوح.

انتظر ديكسون مدة من الوقت حتى ظن في البدء ان بدرا لن يفي بوعده. ولكن ما ان انتصبت الشمس في كبد السماء حتى شاهد "ديكسون" بمنظاره غبارا متصاعدا واستطاع ان يميز ثمانية من الخيالة قادمين نحو الكوخ وقد ترجل من وسطهم بدر بخطوات واسعة أما البقية فقد اخذوا يعدون على جيادهم بسرعة ليطوفوا حول الكوخ ونهض "ديكسون" الذي وصف بدر بقوله طويل القامة، عريض الكتفين، شخصية جذابه ومستقيم مع انحناء قليل بالنسبة لرجل في الخامسة والستين من عمره،

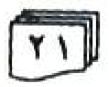
وجه صارم، عميق، عيون نفاذه، لحية مربعة وملتهبة ذلك هو الانطباع الذي يتركه لدى الشخص المقابل ولا يمكن ان ينسى.

"سلامٌ عليكم" قالها وهو يتجه إلى ديكسون بدون سلاح لقد كانت طريقة خداع غامضة لتضليله بدعوة السلام، لكل ذلك بدت كالمصيده، أما الضابط السياسي فقد شعر بان بدرا يتصرف بطريقة بغيضه وينتهك حرمة القانون وجها لوجه. لقد امتلأ غيظا واستدار ليظهر الغضب على وجهه واضحا. الشيخ العربي وقف هناك ينظر اليه صامتا في تلك الاثناء، ثم انفجر ضاحكا واتجه اليه واضعا يديه المجعدتين السمراوين على اكتاف ديكسون، قبله على خده الايمن ثم قبله اخرى على الخد الايسر ثم بدأوا يبحثون في موضوع المقابلة.

قال الرجل الانكليزي بعد ان كون فكرة عن الموضوع تعال معي، تعال معي وبالحظ والبخت إلى الناصرية وسوف ارسل برقية إلى المفوض الاهلي(٨) في بغداد واعلمه بانك اعلنت الامان، وانا اعدك بان حياتك، ومكان استقرارك سيبقى مشرفا تعال معي كالضيف المحترم، وانا ساعطيك الضمان المقدس بانك سترجع سالما إلى قريتك بعد ايام قليلة.

نظر إلى الضابط السياسي بغرابة اول الامر، وقد بدا بدر العجوز فجاة صلبا لا يمكن ان يلين ثم بعد ذلك بسط يديه ليصافح الآخر (كلماتك كريمة ولطيفة كما توقعت ان تكون) قال بدر ذلك ثم استمر: (اشكرك كثيرًا يا حضرة الحاكم. غدا ان شاء الله سوف نلتقي ثانية وسيكون اللقاء في نفس المكان وفي نفس الساعة، الوداع واتركم في حفظ الله!) ثم استدار وذهب كما جاء بخطوات لها قعقعة التحدي في حوافر الخيل.

ديكسون اطرى نفسه بانه كان على الطريق الصحيح اخيرا، وامتطى صهوة جواده ليعود إلى المخيم وفي ذهنه تصور للبرقية التي ستنطلق غدا بسرعة إلى الجهات العليا.



ولكنها كانت تخيلات واسعة فمع بداية اليوم التالي جاءت وصلت ارتداد بدر وفراره.

ما الذي ازعجه بعد هذا الوعد الذي استمع إليه؟..بالتاكيد لم ينتابه الخوف، لماذا لم يعلل اختفاءه في محارته ثانية، المحاورة التي تبدو وقد قُدِّر لها إلاّ تستسلم لاقل من الفولاذ البارد (السلاح).

ما الذي سيحدث للقبائل الصديقة التي وصلت عملية خضوعها المخاض العظيم؟

ان غرور بدر واعتداده الشخصي بقوته اوصلته بعيدا وستكون عواقبه وخيمه.

كان ديكسون محبطا وآماله تتركز في ان يجد سببا لاستئناف مساعيه، اخلاصه القوي في ان يجد حلا سلميا اهتز بقوة.

الم يكن هو ممثل الجيش الحكومي؟ بالتاكيد فان بدرا سوف يدرك قوة جيشنا.

يبدو ان بدرا مصممٌ على ان يضع ابهامه على انفه (علامة الاستهزاء) متحديا، مع عزف (التعاقبية الخامسة) الممقوته من دكاتره الموسيقى، (الضابط، الامر العام، دفاعات الفرات).

الحواشي

(١) عندما كان السير الين كوبلهام يطير على هذه المنطقة في مهمة خطيرة جدا إلى استراليا سنة ١٩٢٦ تم اطلاق النار عليه من الارض وقتل الميكانيكي الذي كان إلى جانبه (المؤلف).

(٢) تعني المثل الشعبي القائل عينك ميزانك (المترجم).

(٣) يضم هذا الاتحاد او التحالف عشيرة بني مالك والاجود وبني سعيد من حواشي المؤرخ كامل سلمان الجبوري.

(٤) الجهاد او الحرب المقدسة واحدة من خمس فرائض في الاسلام: الصلاة، الصيام، الحج إلى مكة، الزكاة، فطريقة الجهاد هي دعوة لحمل السلاح لحماية الاخلاص الحق، ولكن السلاح كان بيد الاتراك قبل ان يلغي السلطان نظام الخلافة. من المحتمل ان يرجع ذلك إلى اسباب سياسية. هذا العمل كان في بلاد ما بين النهرين عند اندلاع الحرب العظمى. ثارت القبائل لان امر الاتراك كان يمثل قضية دينية مقدسة. في ترجمة مولاي محمد على للقرآن (هامش ١٠٧٣) (ترجم كلمة الجهاد بـ(الكفاح) (النضال) (وجهة النظر دون شك تعود إلى الطائفة الصغيرة المحمدية). وانكر كل معنى حربي لها. ان دراسة اصل الكلمة وتاريخها من المحتمل ان يكون هكذا، ولكن بين القبائل العربية نفسها فان الكلمة تكشف الدلالة او المضمون الذي اعطيناه (المؤلف).

(٥) انه مجرد اتهام، ولو صح ذلك فان بدرا كان يتمنى عودة الاتراك فاذا اراد ان يؤوي جواسيسهم وعملاءهم فذلك جزء من اخلاصه لتحقيق امنيته (كامل الجبوري).

(٦) كان الميجر ديكسون يشغل منصب مساعد الحاكم العسكري لسوق الشيوخ من ١٩١٦/٩/١ ولغاية ١٩١٧/٩/٣٠ وفي ١٩١٧/١٢/١ عُين حاكما سياسيا في الناصرية، وبعد ذلك كولونيلا والوكيل السياسي في الكويت في الخليج الفارسي (المؤلف).

(٧) هذا الشكل من الالقاب كما هو في العربية، انه بلا معنى ولايشبع غرور المرء او كبرياءه. والاسم البارز قلما ينسى. سير ريجارد وبعد ذلك اصبح كابتن بورتون في رحلته السرية



إلى مكة كان يعرف من قبل البدو القدماء "ابو شوارب" نسبة إلى شواربه التي لا يقلمها ولا يقصها، لقد كنت استمتع في إحدى المناسبات في جنوب الجزيرة العربية عندما اسمع بان ضابطا بريطانياً ممتازاً قد زار المكان قبل عدة سنوات وكان يذكر فقط بـ(ابو خرطوم) نسبة إلى انفه البارع الطويل (المؤلف).

(٨) في الأيام الأخيرة من الحرب والبريد الحربي المستعجل لم يكن يستعمل كلمة (المندوب السامي للعراق) أن المسؤول الأعلى عن السلطة الأهلية كان يعرف (المندوب أو المفوض الأهلي لبلاد ما بين النهرين) استعملت لأول مرة للسير برسي كوكس ثم للسير أرنولد ولسن (المؤلف).

الفصل الثاني

المواجهة التمهيدية

١٩١٨/٥/٢٨م

أمر العملية رقم -١-

بواسطة الضابط أمر الرتل النهري.

(المصدر خارطة (١/ ٢) الى (١)ميل مسح:غبيشية[١]، خميسية[٢] ناصرية).

١ - الموقف: بدر الرميض شيخ قبائل البو صالح،الى هذا التاريخ لم يسلم للحكومة البريطانية

موقفه خلال المدة الطويلة الماضية سلبي وغير واعد ولكن عناده وعدم تسليمه يؤخر استقرار شؤون البو صالح.

٢ - الهدف:ان المقصود من مركبات الدفاع "فايرفلاي" و"وكرين فلاي" و"اس ٩" و"فوج المشاة التاسع والتسعون المستقل" و"القسم المستقل" و"مجموعة البنادق الاوتوماتيكية الهندية" ان تكون تحت امرة الضابط السياسي للناصرية ومساعد الضابط السياسي للسوق وبأنها سوف تذهب الى قرية بدر الرميض في يوم ٢٩/ ٥/ ١٩١٨ وتامره بالتسليم للحكومة البريطانية.

٣- امر وتفصيلات التحرك: في صباح يوم ٢٩/ ٥، المركبات الواردة اسماؤها في الامر سوف تتحرك من المزلاك، الاولى في التسمية الساعة الخامسة صباحا.

مركبة الدفاع فاير فلاي

مركبة الدفاع كرين فلاي

اس ٩



"كرين فلاي" سوف تتحرك مسافة ٤٠٠ ياردة بينها وبين "فاير فلاي".. ومثلها بين "فاير فلاي" و(اس ٩) كذلك تترك مسافة ٤٠٠ ياردة خلف "كرين فلاي"..المركبات سوف تمر عن طريق هور الحمار[٣] الفهود[٤]، هور ام الكطن،[٥] ابو غليوين،[٦] وهور الطلايع[٧]،الى نقطة مواجهه لقرية بدر "في دائرة قطرها ٥٥/ ٢٠/ ٢ قدما".

٤ - الحماية والحذر:لا نتوقع اية مواجهة ولكن مع ذلك وكتدبير حذر، عند دخول المركبات الى هور ام الكطن على الجنود كافة وبقية الملاك في كل المركبات ان يكونوا في غاية الحماية والحذر ضد نار البنادق، وكتدبير حذر فان الرسو والنزول الى اليابسة مسالة ضرورية وفصائل المشاة ٩٩،وحاملي البنادق الاتوماتيكية ومجموعة اسعاف الميدان سوف تجهز طعام غد،الليلة.

٥ - العمل في حالة اطلاق نار على المركبات: في حالة حدوث اطلاق نار على المركبات فان على حملة البنادق الاوتوماتيكية والبنادق العادية ان تفتح النار مرة واحدة على الجماعات المعادية. المركبات سوف تسير بحذر كانها الابحار في اماكن غير اكيدة العمق وبسبب الضفاف والمياه الضحلة.

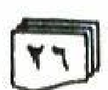
٦- وسائل الاتصال:

ملاحظة:ثلاثة خطوط للاتصالات المشتركة سوف تربط بين "فاير فلاي" و"كرين فلاي" و "اس٩".

٧- التقارير:

كل التقارير الى الضابط امر الرتل النهري ومركبه الدفاع فاير فلاي".

كانت هذه العملية هي اول تجربة لي في العمل السياسي ولقد كنت على يسار الفوج الذي بامرتي ١/ ٤من الحركات في الناصرية، لأحل محل الضابط السياسي في سوق الشيوخ هايس،[٨] كابتن شاب، يتكلم عدة لغات وقد استثني من فوج الراجبوتي[٩]،



كان في مهمة وكنت معه على ظهر الـ"اس٩" لنتفق على الاوامر،عندما مرت المركبة باتجاه مجرى النهر في الساعة ٧.٤٥ في صباح يوم ٢٨/ ٥ اللاذع.

لقد تعارفنا على ظهر المركبة المدرعة بواسطة الملازم الكولونيل الذي يشغل الان منصب ضابط القيادة في الرتل، وبامر الميجر ديكسون رئيسنا السياسي المحلي، كنا نعمل-سويًا كلنا بسرعة- الخطط السرية ضد رجل الاهوار الكبير..

بساتين النخيل الكثيفة تشكل خطاً على ضفتي نهر الفرات الجبارة وبين بيوت القرويين الطينية هنا وهناك تجد قبة زرقاء على المقامات او الاضرحة والتي يزورها الشيعة لتعطيهم الهبات. لقد وصلنا هناك ظهراً فوجدنا كميات كبيرة من المياه المنتشرة وهو مايسمى "هور الحمار" حيث ترسو مركبة الدفاع الباخرة المدرعة "فاير فلاي" و"كرين فلاي".

اعتياديا لم يكن هناك زوار لجناح الضباط في المركبة غير اعتياديين، ولذا فقد جئنا الى طعامهم المثلج، والمزية المؤثرة في الثلج لايعرف قيمتها غير الرجل الذي يشرب بيرته حارة في المناطق المدارية او الاستوائية تحت حالات الحملة التي تسجل فيه درجة حرارة الظل ١٢٠. في تلك الليلة تحولنا الى جانب ضابط القيادة في الرتل في "فاير فلاي" وفي الوقت نفسه جلبنا تخصيصات وذخيرة "١٢" مدفعا نقلت من مركبة الى مركبة اخرى.

لابد من ان تكون البداية مبكرة غدا لنستعين بعنصر المفاجاة وعليه لابد من ان نخدع انفسنا بالافتراض بان رد الفعل لتركيزنا قد فقد على الشواطئ العربية، وبان هذه الترتيبات ستفشل لنرسل السعاة الى رجلنا العجوز في الاهوار قبل ان يبدأ قذف الدخان الاسود من مداخن مركباتنا ليرتفع فوق افقه لتحذيره بالزيارة الوشيكة.

لقد استيقظت لاجد باخرتنا في الطريق المؤشر، والرماة كانوا منشغلين بملء اكياس الرمل لبناء المتاريس بجانب حواف المركبة ذات الجدران الحديدية السميكة.



أربع ساعات ونصف الساعة اوصلتنا الى الجانب البعيد من الهور وفي الساعة ٩.٣٥ وصلنا الى نقطة الرسو التي تبعد "٢٤٠٠" ياردة جنوب غربي قلعة بدر.

اطلاق نار متقطع من البنادق، هدفه اظهار العداء،استقبلنا من الضفه الشرقية، وكأننا نترك البحيرة فقد اقتربنا من القنال الضيقة التي يظللها سعف النخيل الى الامام باتجاه قرية بدر، لكننا لم نرجع منها "الكلاب تنبح والقافلة تسير".. لقد اثيرت كلها من واحد من الحرس يتسلى باستعراض قوة التحدي هذا الذي لا طائل تحته.

ان ساعات الصبح الأولى انتهت بالتسلية طول الطريق بفضل راوية القصص العربي، الرجل القبائلي العربي من المحتمل انه على حساب اميته تمرن ان يكون راوي قصص. أو اخبارياً بارعاً، وتشبيهه الرائع للصورة على حساب شجاعة بدر ومآثره جعلتنا نتسلى كثيرا. الان نسمع بان الرجل العجوز قبل اشهر قليلة كان قد استولى على باخرة مدرعة ارسلت بقضية مشابهه لطبيعة مهمتنا الحالية، وقد ضرب بالسيف كل رجل كان على ظهر الباخرة، لقد كان ذلك غريبا ولم نسمع حتى بهمس عنه وهذا يعتبر من الامور التي لابد ان تصل الى اسماعنا، ولقد اثبت العربي للجميع انها مفارز للسلب! تلك الباخرة، كما ذهب الملفق في حديثه طفت على الشاطئ ذي الضفة الرملية، تقدم لها العرب بسرعة لاخراجها من النهر لمسافة ميل او ميلين، وجلسوا يشتغلون بجد لصناعة الحبال من الحشائش بالمئات،ونزلوا باثقالهم الى النهر، عاموا تحت الماء اسفل النهر وحبال الحشيش ادت ما هو مطلوب منهم، لقد اصبحوا الان قريبا من الوقوع في الشرك في الدافع (الرفاس) المتحرك، واعاقوا اعمدة الادارة، عملوا اكثر مما تحتمل المكائن، والبقية كانت سهلة عندما شوهد طاقم الباخرة البريطانيون متورطين بعمق في عمليات انقاذ الباخرة، بدر ورجاله السعداء كانوا يقفون بالانتظار وهكذا استولوا على الباخرة وانتهت القصة الملفقه.

يتبع القصة سلوك اخلاقي على اية حال، بدر كان بلا شك صاحب مواهب وكفاءات، ويتحلى ببسالة الرجل الوطني (المحلي) الم يتزوج خمسا وستين امراة[١٠]



وبترتيب حسابي، شابه عذراء لكل سنة من حياته وهكذا[١١]، وعندما ذهب للحرب الم يذهب معه عشرون مجندا من اولاده برفقته؟

انه هنا سليمان واليوشع في ان واحد[١٢]، والان فلتعجب من مناخ هذه المنطقة، الم تكن ارض شنير (شنعار)[١٣]، ارض بابل، جنة عدن؟

هذا المناخ هو مناخ الاباء القدماء والحديثين، لقد لونوا الاغاني ونوعوها مع الوقت.

وهذا نموذج من اغاني الجنود في ذلك الصباح في وجود بهيج وماجن[١٤]

لقد وصلنا نقطة ابحار الامان المحددة لمراكبنا والاميال الاخيرة القليلة التي تشبه الموت البطئ كانت محفوفة بالمخاطر حقا.

ان وجود التغيرات في الاراضي المنخفضة، من يوم لاخر من ارتفاع منسوب المياه في النهر، هو الذي هيأ الفرصة الكافية للمناورة وخصوصا عندما يكون الفيضان في اعلاه في تموز واب، ولكن الحرارة الشديدة لتلك الاشهر كانت تعيق نجاح عمليات الادارة، والاتصال بواسطة الجنود البيض، واذا استطعنا اختيار الوقت لرمي القفاز للتحدي فان اشهر الصيف غير مسلية.

المشهد خلفنا كان مميزاً، كلنا الضفتين الشرقية والغربية كانت خلفهما امتدادات جافة، والتي تحل محلها في تغير الفصول مناطق بحيرات مؤقته، الاسراب كانت متعددة، الحقول الصفراء الواسعة في وسط المكان ترى من بعيد، ولقد كانت هذه المناطق تحتاج الى الكثافة السكانية التي في المناطق المجاورة. قرية بدر كانت تضطجع الى الغرب من بساتين النخيل، وبينها وبيننا كانت منطقة جرداء تتخللها طرق مغمورة، والتي ستكون مكانا مفضلا لمهاجمة الجنود غير المطلعين عليها، لمحة بسيطة تكفي لترينا ان نزول قوة صغيرة مثل قوتنا الى البر كانت غير مضمونه بالرغم من احترافنا لعملنا.



مهمتنا بعد كل ذلك هي السلام، ولكن يجب ان ناخذ الاثنين معا لنصوغ السلام، اذا اراد بدر الامان فسياخذه بسهولة بمجرد قدومه الى الباخرة للتفاوض. سيحصل على تاكيدات برجوعه سالما اذا لم تعجبه اقتراحاتنا، او اذا طلب وقتا لدراستها وفي كلا الحالتين لن يصيبه اذى اكثر من عدم مجيئه بتاتا، من المكان الذي كنا فيه بدت قرية بدر مهجورة. ليس هناك انسان يمكن رؤيته عدا الخيمة الكبيرة، واخرى اصغر منها، وجياد قليلة قيدت بحبل طويل معين وكانت ترعى حديثا، اذا لم يكن حقيقة فهي حركة مفتعلة.

فجاة ظهر شخص من الخيمة الكبيرة، واتجه نحونا مباشرة، وعندما اقترب اكثر بمشيته المبجلة، وبجسمه ذي التغذية الجيدة، ومظهره السو فسطائي، وملابسه الوقورة التي دلت على انه رجل دين، انه في الحقيقة واعظ بدر الديني "ملا مشرف"رجل الدين الرئيسي والكاتب،وكان واحدا من طبقة قوية عليا في وقته كما كان تاثيره ممتدا للسنوات الطويلة الماضية ومايزال.

لقد بدأت الاجراءات الشكلية، وبادرنا "لماذا جئنا؟ وان القبيلة اثيرت بزيارتنا. اذا كنا نسال عن شيخ بدر فللأسف ذهب منذ الصباح الباكر لقضاء بعض الشؤون الخاصة ولكن ولده الاكبر حسن حاضر وحسن خادمنا المطيع".

قال ديكسون: "ارجع واحضره"،وحسن متوقع حضوره في الطريق.

"اين والدك ياحسن؟"

"شيخ بدر-قبل ساعة ركب وذهب بعيدا".

"لقد جئنا لنراه، ولاحاجة لايقاع الاذى به ، وليس هناك اخطاء تفرض علينا محاسبته على ذنوبه الماضية كل مانريده هو زيارة شكلية للناصرية والتعهد عن منطقته ان تبقى على حالها ليس احسن ولااسوأ من الجيران".

رد حسن: "الله يبارك فيكم"..



"ولكننا نريده هنا هل يستطيع ان ياتي الى الباخرة"

أجاب حسن: "الله اعلم" واشار مشككا "ولكننا في خدمتكم، اخواي الاثنـان في القرية، خذهما وخذني بمشيئتك، خذنا اذا شئت رهائن".

هذا هو السخط. الشيخ كان يظهر بوضوح وهو يلعب لعبتـه القديمـة، ديكـسون لاطف، ووعد، واقتنع بالعودة، ولكن كل ذلك من دون فائدة ان الذهاب بَينَ بَينْ قلـما يتوقع لكلام سيدهم الصادر من العقل ان يكون له تاثير حتى لو كـانوا يعرفونـه جيـدا وفي نهاية ثلاث او اربع ساعات من المجادلة كان صبر الضابط السياسي قد نفد، تراجع مع الضابط امر الرتل لتحديد الخطوة التالية لقد قررت حالا:

"ملا مشرف انزل الى الشاطئ مع انذار رسمي الى بدر بان يحضر الى ظهر البـاخرة في ظرف ساعة".

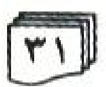
وحسن الذي بقي على ظهر الباخرة، ارسل رسالة خاصة في الوقت نفسه-ولهذا لم يكن واضحا تماما الى أي مدى سوف يستمر يخدعنا طالبا اخويه الاثنين ان ياتيا الى ظهر الباخرة بلا قيد او شرط.

وهذا ماجبرهم على اعلان ارائهم الحقيقية ومبادئهم.

في الساعة ١.٣٠ جاء الملا حاملا ردا مكتوبا برفض لطيف من بدر حـاملا ختمـه، لابدر ولا اولاده سوف يأتون.

اذن لم يفعل الرتل النهري شيئا، ورحلوا تاركين القالة، انهم لم يفعلوا شيئا، لم يكـن يعتقد ان ذلك يشجع بدر فقط ان يمضي بعناده، ولكن لاغراء الشيوخ المحليين الـذين في الطاعة ان يتركونا باعتقاد انهم يستطيعون ان يفلتوا من العقوبة.

والقيام بعمل من نوع ما كان بالضرورة مهـما لنـريهم ان الحكومـة جـادة، وعمـل كهذا في حسابنا كان قد احبط بعمل مسبق من الشاطئ، وأيضا الهجوم المفاجئ بفعالية من حول الخيمة، انطلاق الرصاص، عويل النساء (هلاهل النسـاء :المـترجم)، رقـصة



الحرب (الهوسات: المترجم) كلها شكلت رد بدر (فزعة) القبائل او القيام بالانتفاضة، هذا كان نتيجة طبيعية لتحديه الفعلي. وبعد قليل جاء نحو مائة وخمسين من رجال القبائل، البنادق بايديهم منطلقين بسرعة من خارج بساتين النخيل ليعبروا السهل مسرعين للنجدة ملتفين حول القبيلة المنتفضة. والآن هم خلف الخيمة.

نحن كنا في موقف ممتاز اذ كنا مسيطرين على ايدينا (ضبط نار: المترجم) الى ان ينقضي الوقت المذكور في انذارنا، من ناحية اخرى سنتسبب في فوضى كبيرة اذا بدأنا العمل (قبل نهاية الانذار).

الساعة ١.٤٠ وصلت الدقيقة وأُمرت "فاير فلاي" بفتح النار أولاً. احد مدافعها الرشاشة تعطل عن العمل بعد دورات قليلة، وكرين فلاي دخلت الى العمل بقصف مباشر واستمر القصف. أولاً الخيمة تحولت الى شظايا، ثم الصغيرة شبت فيها النار، بعض الضربات وقعت في بيت الضيافة القصبي (المضيف) وقد تركز القصف على البرجين الشمالي والغربي.

الكولونيل لوكسمور، امر بهذه العمليات، جلس بشجاعة في اعلى نقطة على الجسر وكان قد اخذ موقعا جيدا ليرصد ويسجل الحركات على الشاطئ، ليرسم ويستطلع ويكشف المواقع لرماة البنادق، ونقطته المكشوفه رسمت مسارا جيدا لنار البنادق والتي -لحسن الحظ- كانت عاجزة عن اصابته.

لم تكن هناك اشارة للحياة بعد الرمي الاول المستمر (الصلي) حتى ظهر رجال قليلون من المحتمل ان يكون بدر وحاشيته قد اندفعوا خارجا، وقفزوا على ظهور جيادهم واختفوا في غمامة من التراب الى الشمال.

في الساعة الثالثة بعد الظهر صدر امر وقف اطلاق النار وتبعه الامر بالانسحاب، "اس٩" تحركت مباشرة باتجاه مجرى النهر في الساعة ٢.٤٠، و"كرين فلاي" و"فاير فلاي" تتابعان الان في مسافات حذرة، متوقعين في اية لحظة ان ياتي الوهج من بساتين النخيل التي يغطي سعفها ضفة النهر من رجال القبائل الذين -كما كان يعتقد- سوف

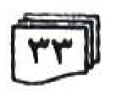


يرجعون بعد انسحابنا. وبينما نحن نرفع المرساة ونضعها على ظهر الباخرة واذا بمئات من القرويين قد بداوا يظهرون ثانية من السهل ليعملوا في مساكنهم المهجورة. و"كرين فلاي" اتجهت على الشاطئ الطيني اكثر من مرة ولم تخرج الا بصعوبة، وفي هذه الفرصة توقفت "فاير فلاي" كمؤخرة بينما "اس ٩" تمكنت من ان تمنح نفسها بعض الاهمية ودفعتها. لقد كانت لحظات مثيرة للعرب كي يهجموا اذا رسونا خلال عملية انقاذ الباخرة، انهم يملكون الفرصة للنجاح خصوصا بعد حلول الظلام.

عرب الاهوار يكونون بشكل طبيعي برمائيين كالضفدعة، سباحون اقوياء جدا، حتى بيد واحدة،وفي الماء البارد، انه يتعامل مع النهر بيد ويمسك باليد الاخرى ملابسه عاليا بعيدا عن الماء، وهذا مايمكنهم من ان يلبسوا ملابسهم جافة في الضفه الثانية.

في عهد الاتراك وفي مدة الحرب ايضا كان حرا مطلق العنان في عادات غير مسرة في استعمال هذه الطرق الماهرة لابعاد الشك باستعمالها بانتظار الليل، يمسح جسمه بالزيت ويطفو باتجاه مجرى النهر على طول الجانب، قفز الى ظهر المركب الذي رصده، وبصمت انسحب من على ظهر المركب ثانية مع غنيمته، التي يصل بها الى الشاطئ وهو في حالة جافة تقريبا.

لحسن الحظ "فاير فلاي" وكرين فلاي هنا الان وتوقفهما قوي وسريع، لقد حدث خلال لحظات التوتر في النزول الى الارض حادث مسل والذي اظهر الاغنية التي يرددها البريطانيون كاملة حين اللقاء، كلبٌ زغبي(١٥) صغير من اصل غريب، يعرف للجيش عموما في تلك الفترة بـ"كلب الموصل الصغير" سقط من على ظهر الباخرة، مالكه مارد ضخم من رجال البحر، ظهر على المركب في تلك اللحظة ومن دون توقف للنظر بعين الاعتبار الى العرب الاعداء او ليتعرى هو نفسه من ملابسه المرتقه وبهدوء مشى على الجانب كانما يمشي خطواته على الرصيف، لقد اختفى تحت الماء لحظة واحدة ثم ظهر على السطح وانطلق الى الكلب والان تراجع في تيار النهر السريع الجريان، وكافح عبثا ليبلغ الباخرة، ولم يدم ذلك طويلا حتى لحق بها، رجع ورمى الكلب الى



ظهر الباخرة بعد ان امسك بها وجذب نفسه الى ظهرها، بدلته المبللة التصقت بجسمه البدين، ولقد لفظ بقوة لعناته وسبابه على البائس الصغير المنبوذ نصف الغريق وهو يمسد راسه بحنان، ولقد شاركنا ضحكنا القلبي على اليفه المفقود، لم يكن يدرك انه فعل أي شئ غير مايمكن فعله، ولكن الاقدار كانت لطيفة حيث لم يكن هناك أي عربي يكمن في ذلك النخيل الخطر، ولكنها رمية حجر بعيدة.

"كرين فلاي" انزلقت الى المياه العميقة والرتل النهري واصل رحلة العودة الهادئة، وعند مغيب شمس غد عدنا الى هواياتنا العادية.

اما حسن[١٦] ابن الشيخ الذي جلبناه معنا كرهينة او سجينا مقبوضا عليه فقد "نقض عهده اخيرا" و"رجل الاهوار العجور كان قد اعلن الخروج على القانون شكليا، وقد أُشيع على ظهر الباخرة ان منافسا[١٧] قد وضعته الحكومة خلفاً او وكيلاً، وهو شيخ بني مالك.

"هايسون" وانا كنا قد نزلنا في ذروة الموجه في سوق الشيوخ، لاسلكي قصبي (Tailbairdi)، او ببساطة اكثر "اشاعة العرب"، سبقتنا بنشر خطة الرحلة للحملة وقد عملت بحيوية في زخرفة الخيال الاعتيادي وقد تعلمت في هذا الوقت الا أُفاجأ او أُصدم عندما يقابلني الحمالون العرب ويحيوني بابتسامة عريضة ويروون بقناعة واضحة تلفيق السوق النموذجي يتبعه القصف بالقنابل والراس المدمى لاحد اولاد بدر الذين لايحصون، كان كل ذلك مكشوفا من اعلى فرع الى ابعد شجرة نخيل.

الحواشي

(١) غبيشه: قرية تابعه لسوق الشيوخ تقع على لسان البر وعلى حافة مياه هور الحمار، وهي محطة لتوقف قطار البصرة-الناصرية (كامل الجبوري).

(٢) الخميسية: قرية تابعه لسوق الشيوخ،تقع على حافة مياة هور الحمار كانت معسكرا لال سعدون ايام امارتهم، اسسها احد ماموريهم المسمى (ابن خميس)، (الطاهر:العشائر العراقية١٤١).

(٣) هور الحمار: بحيرة مائية كبيرة، يبلغ طولها من نهايته الشرقية إلى نهايته الغربية حوالي ٧٠ميلا ويبلغ عرضه حوالي ٣٠ميلا من الشمال إلى الجنوب ويبلغ عرض القسم الغربي حوالي ١٥ ميلا وتتجاوز مساحته الكلية ١٥٠٠ مترا مربعا ويصب فيه نهر الفرات المزود بفائض مياه اهوار دجلة ثم يخرج منه حيث الالتقاء مع دجلة الرئيسي لتكوين شط العرب ويقع بين مدينتي سوق الشيوخ والبصرة وجنوب مجرى الفرات القديم الذي يجري في هذه المنطقة من الغرب إلى الشرق وتسكن فيه وعلى محيطه مجموعة من العشائر الكبيرة منها: العبودة، وبني مالك وبني سعيد وغيرهم، بواسطة وحدات سكنية مصنوعة من القصب والبردي تدعى الجبايش واحدها "جبيشه" وهو اليوم ناحية تابعه لقضاء الجبايش محافظة ذي قار (كامل سليمان الجبوري).

(٤) الفهود: ناحية تابعة لقضاء الجبايش حاليا،تقع في القسم الشمالي من هور الحمار تسكنها عشيرة الفهود الخاقانية، وكان ابناؤها يخضعون لسلطة سالم الخيون حين كان مسيطرا على عشائر هور الحمار ورئيسهم الحاج محمد بن حسين (كامل الجبوري).

(٥) هور ام الكطن: وهو بحيرة صغيرة تدعى كطينه تقع في بداية هور الحمار ضمن اراضي آل نصر الله من البو صالح-بني مالك (كامل الجبوري).

(٦) ابو عليوين: لعله نهر غليوين مصغر غليون ويقع قرب سوق الشيوخ من جهة الجزيرة أو الجهة الشرقية منه.

(٧) هور الطلايع: يقع ضمن اراضي بدر الرميض في البو صالح-بني مالك في بداية هور الحمار (كامل الجبوري).

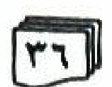


(٨) الكابتن هايسون: كان مساعدا للحاكم السياسي في الناصرية من ٤/ ٥/ ١٩١٧ حتى ٨/ ٩/ ١٩١٧ وفي ٩/ ٩/ ١٩١٧ عين مساعدا للحاكم السياسي في الشطرة وسوق الشيوخ.

(٩) أ: الراجبوتي: باللغة السنسكريتيه (راجا-بوترا) "ابن الملك" أو "اللورد"، امير، ملك، عاهل، سيد اقطاعي تُستأجر منه الارض، أو نبيل انكليزي-وفي الهند يكون صاحب الاراضي والاملاك الكثيرة الذي يؤجرها إلى الاخرين وتشتهر هذه التسمية وانعكاساتها في المناطق الشمالية من الهند / راجع ص٩٥٦ من ENCYCLOPAEDIA-BRITANICA.

ب- الراجبوتي: احد افراد الطبقة الهندوسية العسكرية الحاكمة والمالكة للارض، المورد ٢٠٠٠.

(١٠) شيوخ القبائل لبلاد بين النهرين يبدو انهم يقيمون وزنا لسبق الشيوخ في الاقسام الاخرى من شبه الجزيرة. خمس عشرة أو عشرون امراة (كلهن يعملن يدويا، واقتصاديا مربحات) يصرن لشخص واحد كان بلا شك نادرا بين المنتفك، والتعايش الزوجي كان محجوزا لثلاث أو اربع، وتجربة الاخريات ليصبحن محدودات لامد قصير لوصولهن المبكر، وذلك عندما كنَّ في حوالي الرابعة عشرة أو الخامسة عشرة من العمر، وفي الشريعة الاسلامية يسمح بالزواج الشرعي من اربع زوجات فقط، اما البقيه فجائز الاحتفاظ بهن كاماء (ملك اليمين) ولكن زواج المتعه، وذلك التعليل الذي اسرف به بدر كثيرا، جائز عند الشيعه، القسم الكبير والرئيس من قبائل جنوب بغداد، انه ينشئ علاقة تعاقدية مع نساء حرائر، والذي يكون في القبائل غير مميز الشكل عن الزواج: المتعة "زواج المتعة" لا يشبه الخليلات، انه قانون مقدس لمنزلة وممتلكات الرجل وفي مقام زوجاته الأربع المفروضات نفسه. النظام مطاطي بشكل ملائم وعلى اية حال فخلال الزيارة للاماكن المقدسة في كربلاء والنجف، فان رجل القبيلة سوف يحرز في الحال زوجة المتعه باخذها



لليلة أو ليلتين أو لاسبوع أو لمدة اقامته، هذه الفقرة في ذات المدة القصيرة لا تتعارض مع الفقه الشيعي الديني ولكنها الآن غير مقبولة حتى عند الفرس.

(١١) الصحيح هو انه تزوج ١٠٩ امرأة، أربع منهن بالعقد الدائم و١٠٥ بالعقد المنقطع على الشكل الذي أورده توماس في حاشية مذكراته.

(١٢) أ- النبي سليمان ابن النبي داود خلف والده على عرش إسرائيل عام ٩٧٤ قبل الميلاد وحكم إلى عام ٩٣٥ قبل الميلاد. في قصة مكيدة داود مع باثشيبا المذكور في مصادر تاريخية عديدة سليمان كان الطفل الثاني للاتحاد الزواج.

ب- يوشع: هو احد أوصياء موسى عليه السلام وهو يوشع بن نون الذي تسلم الوصاية من النبي موسى من وقت سابق والذي اخضع ارض كنعان. انظر الموسوعة البريطانية.

Encyclopaedia Britannica 1-p, 951 vol.20 , 2-p153, vol.13

(١٣) شنير أو (شنعار) في الانجيل وشومير في التوراة.

(١٤) بالنظر لورود اتهامات باطلة للانبياء والمرسلين في هذا النموذج وبشكل ساخر وماجن رفعنا نص تلك الاغنية عند الترجمة.

(١٥) كلبٌ زغبي: قصير القوائم، طويل الشعر، متموجه، كبير الأذنين مسترخيهما.

(١٦) فر حسن من سجنه في الناصرية وعاد إلى عشيرته وقيل انه قدم مبلغا قدره عشرة آلاف روبيه مقابل خروجه من التوقيف واكتفى الانكليز أخيرًا بحضوره إلى مركز اللواء.

(١٧) عينت الإدارة البريطانية سليمان النصر الله مديرا لناحية البو صالح، كمنافس لبدر الرميض في ١٠/ ٥/ ١٩١٨ حتى ٣٠/ ٥/ ١٩١٩ثم خلفه كاظم الحمداني كمعاون للحاكم السياسي في البو صالح في ١/ ٦/ ١٩١٩ (كامل سلمان الجبوري).



الفصل الثالث

التهدئة

بعد مرور سنة..

خلال الشتاء تركت سوق الشيوخ في اسفل الفرات لمهمة مستقلة ممثلا سياسيا لمنطقة الشطرة في الغراف في اسفل نهر الحي. ومع ذلك فانا مازلت في منطقة المنتفك. بدر عاش فيها وراء منطقتي و"بعيدا عن النظر بعيدا عن الفكر" ولقد فكرت بان ارى نهايته ولكنني كنت مخطئا. انخفاض مستوى المياه في النهر دعا إلى توقف العمليات.

وعند الالتفات للحظات لتصوير المنطقة، أولا ودائما تراها واسعة غرينيه، سهول ذات شمس محرقة، لقد كانت الطبيعة في واحد من أكثر امزجتها صرامة وتجهما، والسهول هذه هي هبة الرافدين. وهذان النهران يشقان طريقيهما متلويين وغير مستقرين ويتخللان السهول جالبين معهما في الربيع وفي بداية الصيف حملا من الغرين الأحمر الذي يترسب بمجرد أن يهبط الفيضان. الأشهر الخمسة من مايو إلى ايلول، درجة الحرارة في الظل قلما تتحسن أو تصبح اقل من ١١٥ (فهرنهايت) أما في الليل فتكون درجات الحرارة بين ٣٠-٤٠ وهي درجات حرارة تعتبر اقل حرارة وتشعر الإنسان ببعض الانتعاش.

قلما يوجد حجر أو حصى ولو كان صغيرا كقبضة كف الرجل في أي مكان في هذا السهل الهائل، لهذا السبب بابل بعاصمتها النبيلة، لا تشبه نينوى والعواصم المطوقه بالجبال الاشورية، كانت تبنى بالطين والأجر.

النهر يجري بوهن في الشتاء فقط ويصبح متموجا وسريعا ودمويا عندما تذيب شمس الصيف الثلوج من على قمم الجبال، مرسلة فيضانا عنيفا خلال الأراضي يمتزج في النهاية مع مياه الخليج الفارسي. ماذا سيعمل عقل الرجال إذا كانت السدود التي أقامتها القبائل ضد الحوادث التي من المحتمل أن يحدثها النهر المتضخم والفيضان



الماضي بجنون، والذي يكون مستواه اعلى من مستوى السهل. خرق واحد في احدى الضفاف سوف يغرق كل المنطقة المجاورة في فضاء الليل ويدمر كل المحاصيل التي تمثل الجهد الشتوي بفترة قصيرة. هذه بعض التوقعات للفيضان بهذه الطبيعة بالتاكيد، ونحن بذلك نكون مدينين لقصة نوح. ولكن الفيضان ايضا يعتبر نعمة، انه ينمي الحياة في الريف، ان غرينه السنوي هو الموجد لحقول الأرز الخصبة، والذي سيطرد بالتاكيد وبدون خشية طائر الشقنب "الجهلول" من حقول الأرز.

النهر هو المجهز الوحيد للريف بالماء. واذا كنت تعيش في مدينة، وهذه المدينة باقية كاثر لاحتلال الجيش البريطاني ستعرف انذاك عمليات التطهير للماء والتعقيم بالكلور اللطيفة. أو اذا كنت تعيش في منطقة خارج المقاطعة ليست فيها هذه التجربة كالتي عشتها لمدة اربع سنوات عملا حربيا.

ولكننا يجب ان نرحل في اتجاه مجرى النهر لنلقي نظرة سريعة على حياتهم. بقية الزرع بعد الحصاد الاصفر في الحقول على الضفتين هو كل ماتبقى من محاصيل الشتاء حنطة أو شعير أو دخن أو شيء اخر من الأرز من محاصيل الصيف، رجال القبائل يعيشون في اكواخ صغيرة تتالف من بعض الحزم من القصب غير المشقق تربط مع كميات من الحشيش وتسند بوضعها واحدة مقابل اخرى، ويعمل منها كوخ بائس والتي تمتد على طول ضفة النهر، ومهما كان حجم القرية فان قلعة الشيخ سيكون لها برج قتال خارج مركزها الوسطي، ليس بعيدا عن السحر لو اردنا الاطراء كثيرا وقريبا منها جامع بسيط متواضع ومقابلها يقف نفق اصفر ضخم من القصب، انه المضيف أو بيت الضيافة.

مجموعة من الكلاب الضّالة تتسابق على طول مدى الضفة مع مركبك لمائه يااردة تقريبا، تنبح منزعجة من تطفلك ورجل القبيلة المنفرد، المنعزل، اسمر البشرة، وعار عدا مايستر عورته يقف في الماء إلى عمق فخذه ماسكا رمح الصيد بيده (الفالة) محدقا إلى اسفل ليصيد فريسته المتمردة. الجاموس، ضخم وبليد وغير لطيف، والجذام يصل

إلى عمق الرقبة، في هذه المياه الفاترة، أو يسبح بتمهل من ضفة إلى اخرى، غيوم من الحشرات الطائرة تحتشد في كل مكان، والهواء ملئ بطنطنات البعوض.

اسطول من المشاحيف، الزورق المحلي الطويل، على خط الضفة اسفل القرية، وهي تشبه قوارب الجندول، وهو قارب طويل وله عمود يغرز في الطين الضحل، بمقدمته الجميلة القوية التي تشبه فم دلة القهوة النحيلة بخط مقوس، مع تجذيفهم وسط المياة الضحلة يكوّنون لوحة جميلة احدهم يمضي بحركات سريعة مفاجئه مع شئ من المرح الخفيف إلى القارب القوي لاحد ابناء (المعدان).[1] (رجال اهوار من أصل غير عربي) من ذوي البشرة الداكنة، جسمه الاسود القاري يشكل تضادا قويا مع اكثر منافسيه طموحا، البلم الابيض الانيق يعتمد على التجذيف الاعتيادي بمجاذيف طويلة، يزهو ايضا بظله الظليل في سطحه العريض المفروش حيث يستلقي المرء بكل ارتياح فيه، الشيخ أو الرجل ذو العمامه الخضراء (السيد) يقف مبتسما بمرورك المرحب به.

على الضفه يلعب اطفال بصخب، اجسامهم مزينة بحنان الامهات بتمائم دينية أو محافظ جزادين صغيرة تحتوي على قصاصات من الكتابات الدينية لتحفظهم من الشر. يغسلن الملابس في النهر الصغير قيمات بمنظر السواد، وعذارى شابات، والاخيرات يمرحن بملابس زاهية الالوان لتميزهن، واذا كن من ابناء المعدان، أو معدان الاهوار فهن يمطن اللثام بوضوح عن وجوههن التي تشبه القمر، شعرهن مضفور وملون بالخرز، عيونهن الكبيرة البراقة، واسنانهن الباهرة المتالقة، واجسامهن القوية الشابة مستقيمة كالسهم ومليئة كلها بالجمال، اشياء مليحة للامساك. كل شفة موشومة ويجملن انفسهن بحلي فضية ثقيلة، حلقات الانف اليغروزية (الخزامة)، اقراط متدلية (تراجي)، قلائد من حلقات الذهب، عده محابس بالاصابع وأسورة فضية في اليد، وخلاخل في الارجل،والفتاة شاعره بحليها، وعذراء الاهوار باية حال غير جذابة!

في مجرى النهر هناك "المهيلة" وهي مركب نهري ضخم، تنزلق تحت شراع واحد من الجنفاص وراية الشيعة الخضراء ترفرف على ساريتها وشحنتها المختلفة من العرب

والفرس الزوار يتجهون شمالا إلى الاماكن المقدسة في كربلاء والنجف ويتجمعون على ظهرها فضلا عن صناديقها المحملة بالجثث "التوابيت" في طريقها إلى الجنة[٢] وكذلك تكون السفرة لبعض الرحالة المنفردين-من يدري؟ الوادي الذي يظلله الموت هو ايضا للذي ياتون به ليقسم براس العباس[٣] يبرئ نفسه من بعض الشبهات الإجرامية التي في بعض الاحيان لا تحل إلا بدمه.

وهنا نتحول من النهر الرئيس لنرجع إلى الاسفل إلى واحد من القنوات الصغيرة التي تمتلئ لتصب في هور خاص كثيف باهداب العشب المائي الذي يتكون منه علف الجاموس، كما انه يستعمل وقودا في بعض المدن للتنور وبعد ان ينجح الماء في شق طريقة ينتشر بعيدا إلى الاسفل، ويصل اوجه في شواطئ متباعدة قلما تتمكن من الرؤيا فيها، وهي ليست مكانا ملائما للنخيل الهزيل أو لأغصان الصفصاف التي ترتمي تحتها لتستريح.

إن سطح الاهوار يكون لوحا زجاجيا مع تساقط عرضي للالوان: الاصفر، القرنفلي، الاخضر، حيث تكون زهور اللوتس ولسان الثور، وزهر الاوز التمري نفسها بوجهها الصافي، والغرة، ذلك الطائر المائي الارجواني، أو الغاق ذلك الطائر المائي النهم، القزم الذي يطفو بلا حساب.

كلها تعيش بامان هناك بين انين الريح في القصب. وكلما اقتربنا اكثر من هذه المنطقة نراها تشكل جيشا قويا من عشرين قدما من الخضرة التي تقف كحرس، كثيفة ووعرة، ومركبنا الضعيف الذي قدناه، لا يخطئ بلا ريب طريقه إلى قنال اختباء ضيقة وهي الوحيدة التي تكون مستغلقة الاعماق. في الحواف قصب كثيف تحطم اعلمنا بان الجواميس أُقلقت بمرورنا. اخيرا حلق عقاب وتبعنا بنظرة غبية وهو يطير رافعا سمكة تتخبط بطريقة غير متقنة وهي تبلل رؤوس القصب بقطرات السائل الذي ينضح منها. وهنا موطن الثعالب المائية المختلفة والخنزير البري، وهنا المسكن الشتائي لعشرات الالاف من البط والحذاف والجهلول.

وبمجرد ان ظهرنا في الجانب البعيد غربت الشمس في لون من الوان الجنة لم اشهد له مثيلا إلا في سيلان في وقت الغروب. تغور تدريجيا وتبدو كانها تغرق في الشفق. لقد حدث تغير مفاجئ ومريح في درجات الحرارة، وربان المركب اوقف عمله ليصلي صلاة المساء، الرياح طابت وبدات ترسل قطعا سوداء من الغيوم بمقدار كبير خلال التواءاتنا واسراب الاوز اتخذت شكل حرف (V) في طيرانها وهي تصيح بصوت عال في صفوف متناسقة، وهبط الظلام على المياه المليئة بنقيق الضفادع.

وعلينا ان نرجع إلى الشيخ بدر. في ذريعة له بان قبيلته قد اسدت له اشياء تدل على الاخلاص الشديد. بدر ارسل تحياته لزيارة الرتل النهري بالانحدار إلى الهور من جانب اخر فانه بدون شك قد تمرن على التاثير المباشر على شؤون البو صالح ولنفيده في التهيؤ للمجئ فقد عينا سياسيا محليا في الفتحى[٤] مع خمسين من الجنود المتطوعين "الليفي"[٥] تحت امراة "هول" ضابط ممتاز خدم مع خيالة المنتفك في بدايتها، الآن صعد ليكون امرا لها، هدفنا كان ان نكسب بدرا، اذا اراد ان يربح، ولكن ذلك يتطلب تفاؤلا كبيرا لنستبين علامة على مثل هذا النصر.

حفلة سباق الخيل في الناصرية في هذا الوقت جلبت الشيوخ من أبعد واوسع مكان، ولقد وصلوا متحمسين ليسبقوا اقزامهم وليخلفوهم وراءهم مع خيول المنتفك المحبوبة، في الوقت الذي يكون فيه الشرب محظورا بشكل صارم، والحركات الصغيرة على الحصان مقبولة من قبل أكثر الاتقياء المتدينين.

والان مع مفاجأة غير متوقعه حيث انبثق من ظلمته مليئا باصباغ الحرب والشهر كان نيسان، لقد كان هادئا لما يقرب الاثني عشر شهرا، وهنا تكون فرصة المتمرد القديم. وهكذا بينما العالم مبتهج بالسباقات فاذا هو ومائتان من رجاله يظهرون في زوارقهم في وضح النهار قبل قلعة الحكومة في الفتحي، وعندما حل الليل هجموا على نقطة المتطوعين "الليفي"، لقد ازيح عن المنطقة وفقد اربعة قتلى وثلاثة جرحى، اما نحن فلم تكن هناك اية اصابات في جانبنا.

لقد كان في تلك المناورة الكثير مما لم تره الاعين، وحتى جرأة بدر، قلما كان يجازف إلى هذا الحد بدون وجود سند له يحمي ظهره. في كلمات موجزة، هناك شك صغير بأنه يعمل سرا مع بعض الشيوخ المعلنين ولاءهم للحكومة ومن ضيوفنا في السباق. مثل هذا الموقف ظهر على بعضهم بشكل اكثر من واضح. لقد شعروا بان قوتهم قيدت بسلام الحكومة الاجباري، الحكومة التي منعت اطفاء الديون القديمة بالطرق التقليدية أو بالعودة إلى السلاح، ولا أسوأ من ذلك كله إلا انهم دعوا الآن إلى رفع الربع الحكومي للفترة الاولى. ضرائب!! تحقيق رهيب وشاذ! انشدوه قليلا ثم بعد ذلك استحسنوا نشاطات بدر بجعل الحكومة في قلق وتوتر. ورأو فيه آلتهم التي تخدم نهايتهم في الهياج. ان استمتاعهم النفسي كان يبدو انه قد شجعهم ليقولوا لبدر سرا :"نحن معك". اذا تعكر السلام، الحكومة من الممكن أن تمتنع عن اخذ الربع الحكومي ومتطلباته، ولعدم استطاعتنا الظهور لوضع قيادنا في القوة الحالية التي ستملك التاثير لدفع الجميع إلى معسكرك لذا فالنتيجة هي ارتداد اجمالي عن الحكومة والتي هي الآن تنفتح وتعترف بالخضوع لارادة قبيلة البو صالح، مثل هذه الفرضية الظنية فقط سوف توضح اولا: انبثاق قوة بدر، ومحافظته على نفسه، بعد محاولات اعتداء اخفق فيها على الفتحي التي تبعد ستة اميال عن قلعتنا في قلب منطقة البو صالح.

في هذه المرحلة كان بدر يمتلك بوضوح التنظيم الجيد، اذا كانت الامور تسير بهذ الاتجاه فسوف تزيد شهرته بشكل ابعد. حتى الآن اخبار استعدادنا غير ملائمة للقيام بحملة تاديبيه تؤهلنا للوصول اليه، وكل العمل الذي يحتاج اليه هو العودة إلى الاهوار وينتظرنا هناك حتى نعود إلى اماكننا بعد امتلاء النهر ثم بعد ذلك يعود للظهور بهيبة واقدام مضاف.

"بالتاكيد بلا فائدة اذا نشرت الشبكة على مراى من الطير" ولكن الطير ليس بعيدا ان يكون لنا فقط، اذا بقيت رئاستنا محترمة ومهابة. ولقرى الرميض ان تعطي بشكل واضح الثائر الحماية الكافية بان تساعده وتغريه والان يجب ان ياخذ درساً صيفياً اذا لم يكن الموقف الخطر يسمح بالنمو.

الحواشي

(١) المعدان: بعض من سكان الاهوار من رعاة الجاموس الرّحل وهم يكونون قسما من سكان الاهوار، اما القسم الاخر منهم من القبائل العربية التي سكنت في مناطق الاهوار وتطبعت بطباع المعدان الذين يعود اصلهم إلى اقوام قديمة نعتقد (وبحسب التنقيبات واللقى الاثرية المكتشفة) بانها السومرية والبابلية وقد نزحوا إلى الاهوار نتيجة اجتياح الآشوريين في غزواتهم من الشمال لمدن سومر وبابل وغزوات الاقوام الفارسية من الشرق لهم وتدمير مدنهم ولهذا السبب نزحوا إلى الاهوار وعاشوا بها حياة الحرية مفضلين قسوة الطبيعة على قسوة الانسان وليس صحيحا ماجاء في تفسير باقر الدجيلي في ترجمته لمحاضرة الكاتب ولفريد ثيسيغر من ان كلمة المعدان ماخوذة من قبيلة معد معتمدا على القواميس راجع ص١٨ من كتاب المعدان أو سكان الاهوار ترجمة الاستاذ باقر الدجيلي مطبعة الرابطة بغداد ١٩٥٦ كذلك راجع كتابنا التوثيقي كتب الرحلات الفريد والمتميزة في مكتبة المتحف العراقي القسم الثاني الفصل الخامس ص ١٤١/ ١٤٢/ ١٤٣

(٢) في ذلك الوقت الذي كتبت فيه،الدفن في الاماكن المقدسة في النجف كان تقليدا ثابتا لقبائل الشيعة، وقلما يمر يوم لاترى فيه الحمير مع مومياءاتها حاملة الاثقال وبادئه رحلة المائة ميل متجهة شمالا وحتى من الاماكن البعيدة، من مسقط. إن جثث اولئك الشيعة التي تدفن، تحفر ثانية بعد ستة أشهر من التجفيف في مكان راحتهم وترسل بواسطة الدهو و"هو مركب شراعي مالوف في شواطئ الجزيرة العربية وشرقي افريقيا" إلى البصرة ثم تحمل في سفينة إلى النجف،كل ذلك اعتقادا بان الجسد الذي يطوفون به ضريح علي ويدفن في الارض التي دفن بها علي سوف يصعد مباشرة إلى الجنة.

(٣) العباس بن علي .. أبو راس الحار، والمنتقم المرعب، وضريحه في كربلاء، المكان المقدس كثيرا عند الشيعة والقسم به اذا كان كذبا فسوف يعود بنتائج مرعبة وهنا فان القسم بالعباس في هذا الضريح يكون للشيعة في العراق، وان اعظم الايمان من الممكن للرجل ان ياخذها ولكن القسم يكون على عدم الارتداد عن القول والفعل والنظير لهذا المقام

موجود في جنوب الجزيرة العربية باسم أبو هود وهو قديس عاش قبل الإسلام وأكثر الناس في ظفار يقسمون بالله وبرسوله وبالقرآن ولكنها لا تحمل نفس الرعب كالقسم بمقام (ابو هود) والمجرم الذي يفترض التصريح ببراءته عموما سوف يعترف بجريمته أو انه سيواجه نتائج قسمه الكاذب عندما يجلب إلى هذا الضريح.

(٤) الفتحي: تسمية لنهر قديم سماه -الانكليز- بهذا الاسم إشارة لفتحهم العراق ويقع عليه مضيف بدر الرميض. وقد عكس بدر بعد ذلك تسميته إلى النصري إشارة إلى النصر الذي أحرزه الثوار. القلعة تقع مقابل مضيف بدر،شيدها دكسن كانت مقرا لهم ثم هدمها بدر بعد ذلك. (كامل سلمان الجبوري)

(٥) الليفي:وكان يطلق عليهم في زمن الأتراك الشبانه وهم المجندون من المرتزقة العرب الذين تطوعوا للخدمة في دوائر الحكام السياسيين ومراكزهم بصفة حراس ومراسلين وسجانين وشرطة وجنود وغير ذلك. وكانت قيادة هذه المجموعة بيد ضباط بريطانيين ولها مقر عام في بغداد (كامل سلمان الجبوري).

الفصل الرابع

جئنا من اجل السيطرة

ان حرارة بلاد مابين النهرين بدات تؤكد نفسها. انه "٢٠" من مايو ١٩١٩ يوم ثقيل جدا في الظهيرة. لقد كنت انام تحت المروحة عندما جاء رسول رسمي من الناصرية ليبلغني بامر الرسالة السرية الملّح، مسحت عيني ونشطت لاوقف الحاح بعض الخدم،وضعفي انا، وشعرت بانني يجب ان افتح الرسالة، واعتياديا يخمن القارئ فحوى الرسالة، خروج رجل الاهوار القديم ثانية!

ليس من احد ابعد في ذهني من بدر، الذي فقدت شكله لشدة انهماكي بالعمل في المقاطعة الجديدة، والادارة النظامية، ولكنه كان امراً مقضياً ان تكون اكثر من طريق غير الحرب، ولهذا فالدور الذي اسند الي اصبح مختلفا عن حماية ظهر مركب واحد نهري مدرع كعمليات السنة الماضية.

"يجب ان تتحرك مع قوة رسمية تتالف من مائتي رجل من رجال القبائل الاصدقاء مرة واحدة" واستمرت الاوامر "وتواصل السير إلى الجزيرة بين المنتفك واهوار العمارة إلى الشمال إلى قرية بدر، وهناك ستتعاون مع القوة الرئيسية التي ستهاجم من الجنوب".

الضابط القائد العالم لدفاعات الفرات بالتعاون مع الضابط السياسي بشكل سري وبهجوم مفاجئ سيقوم الرتل النهري الجديد الذي أُمر بالتعاون كالسابق من جانب هور الحمار بالسيطرة على القسم اليابس الكبير بواسطة الجنود النظاميين الهنود كقوة ضاربة مؤلفه من ٤٠٠ رجل من لواء المشاة التاسع والتسعين، مائتين من خيالة المنتفك، ومائة رجل من سوق الشيوخ، مدفعين وثلاث طائرات بامرة الملازم الكولونيل اف. دي. دافيدسون. آي-أي.

لي هذه اللحظة اجهل تماما ان العمليات وشيكة الحدوث، الصمت يخيم على اولئك الذين يعلمون، ولهذا كان هنالك وضوح محدود لعامل المفاجاة باستغلال السرية في النهر وفي الهور، ان خط الامان الوحيد لشبكة مواصلات المياه التي تكون حالتها صالحة للملاحة تكون مغطاة ببعض الفصول المختصرة من السنة فقط. وكانت تُعرف بشكل عام، استعدادات عسكرية سرية، وعلى اية حال فهي قد تقدمت إلى الأمام بعض الوقت. ومن دون فضول قدر الامكان. كانت قلعة المجندين في الفتحي مهياة ان تكون مكانا للجنود النظاميين "الليفي": المدافع ومراكب الماء دفعت حديثا إلى الخارج كي تستعمل هور الحمار كقاعدة طبيعية، والطائرات التي جلبت من البصرة كذلك تمركزت في الناصرية، اقرب ارض هبوط لتشهد العمليات القادمة، كانت قد حجبت لبعض الايام ولم يسمح لها بالطيران فوق المدينة، في الجانب السياسي، خليفة بدر حجبته الغيوم، إذ لم يكن حقا سجينا، علاقات صداقة كانت قد اقيمت مع ابن بدر لمدة عشر سنوات، كانت تفسر من القبائل كدلالة لموقف استرضاء لبيت الرميض، واعتبرت هذه الحقائق سوية بانها مهيئة لتهدئة المتمرد ودفعه إلى مشهد من السلام والامن الزائف.

الطائرات مكنت الحكومة أن ترى وبادراك ذكي جدية نشاطات بدر والتهيؤ للالتفاف مع هذه النشاطات، اما انا فقد دفنت راسي في الاوراق التي وصلت حديثا ثانية لتصور دوري في العمليات القريبة.

صداقة (ديكسون. دي.او) كانت توضح الهجوم الرئيسي وكانت تقول: "خططت لفجر اليوم الثالث والعشرين، إذا هرب بدر وهو حتما سيفعل ذلك فسوف يهرب إلى الشمال، وهناك ستكون انت بالمرصاد. يجب ان يبقى مستمرا في هربه قدر المستطاع واذا استطاع اصدقاؤك فسوف يغلقون ثقب الجحر".

وعندما كنت ادير الاشياء بعقلي بدا لي انه إذا لم يقتل الرجل القديم أو لم نقبض عليه حالا، فهو في الحقيقة سوف ينسحب باتجاهي، ومن الممكن مع وجود الموالين له و



الوكلاء ان تكون هناك الفسحة الكافية ليعطي نفسه حسابها بشكل جيد. وفي الجانب الاخر سوف ينسل خارجا ويجعل من الاهوار مأواة. وهكذا سوف لن تكون هناك لدوريتي اية فائدة ولكن في تأملات الساعة الحادية عشرة وخصوصا تلك التي تقود إلى حافات المأزق لم يكن هناك ما يشجع، وكانت على اية حال تلكم التأملات تبتلع بامكانية المغامر كل الاحتمالات ولكنها لم تكن بغيضة بالنسبة لي.

اليوم هو العشرون. الهجوم الرئيسي خطط له ان يكون يوم الثالث والعشرين، وأنا هنا كنت ابعد ثمانين ميلا من النقطة التي حددت لي للتعاون. وليس معي من احد من المجندين الجدد ليساعدني. من الواضح والواجب ان اجمع قوتي قريبا من مكان العمليات قدر الإمكان إذا كنت في المكان المحدد في نفس الوقت، لأنظر إلى منطقة البو سعيد، ثم كان هناك أملي الوحيد. بنصف ساعة جمعت قليلا من المخزونات ثم نزلت إلى مركبي الذي ارتفع صوت اشتغاله المعتاد مستمرا لتتخلص الماكنة من البرودة تحركت وتركت الشطرة خلفي، وبعد قليل بمجرد أن شققنا النهر إلى البدعة(١)،وردنا الانحناء، فوجدنا التيار معنا،عندها انطلقنا بحركة جيدة، وعبرنا بحيرة العجول، ثم دخلنا الدواية(٢) بعد أربع ساعات ونصف الساعة أخيرًا.

"السلام عليكم صاحب" قال ذلك صديقي القديم الشيخ محمد عندما جاء ليقابلني، وابنه قفز إلى راس حصاني بلطفه المعهود فرددت عليه في الحال"وعليكم السلام" كما جاء مدير الدواية الاعرج،(٣) رجل جليل وكبير، قابلني على حافة الماء بجياد صغيرة ليقلني إلى اليابسة وبعد الدورة الاعتيادية من المصافحة اخذنا طريقنا على الارض المفتوحة خلال الحنطة المدروسة، حيث اكوام القش الصفراء والقشور التي تبين الحصاد الحديث ثم إلى المضيف خلفها.

لقد دخلنا مداخل المضيف المظلمة نسبيا، والضوء اللطيف بعد شروق الشمس المتألقة في الخارج كان مريحا حقاً، في الأعلى كان السقف واسعا ومقوسا من قصب مضفور مسند على أعمدة من القصب غليظة الشكل وتشبه أضلاع جوف السفينة، اثنا عشر أو



أكثر منها وضعت متساوية الأبعاد فيما بينها، طول هذا السقف يبلغ مائه قدم وهو مكان فسيح ورحب، عمود من الدخان الكثيف يتصاعد ولهذا السبب فان باب المضيف ملون بهذا اللون المعيب، وهو يرتفع من مربع صغير لموقد قوي قريب من المدخل.

وهنا يجلس صانع القهوة الذي يتعذر اجتنابه بجانب يد الهاون والهاون نفسه، مع صف من أواني القهوة، لونه اسود ورجل كبير في العمر والخدمة، يدق القهوة بنغمة خاصة، وحجمه يشبه أولئك الأشخاص في قصص حضانة ساوثي، من الأشخاص الخرقين، رأسه منخفض إلى الأرض، إلى الموقد، أنعش اللهيب المنطفئ بقوة رئتيه (بالنفخ)، بعد قليل (أبو الدلال) سخَّن القهوة على النار، وقبل ذلك بكثير كان قد وزع القهوة بـ"الدلال الصغيرة" بتقليد سخي على نحو مائة شخص نصفهم جالس والنصف الآخر يجلس على ركبتيه، وهم يشكلون خطاً يحيط بالمضيف من جهاته الأربع والجلوس على الأرض مطلوب بموجب آداب المعاشرة، والفراش الناعم سحب وقدم لي، ومعه اعتياديا وسائد النسيج الزئبري ذو اللون القرمزي والأخضر ومع ذلك عرض فنجان القهوة عليَّ، الشيخ وقف هنا واصبح مضيفي تقدم وقدم السيكارة المستدقة الطويلة التي في الريف، والتي من المحتمل انه لم يشعلها بيده، حملها بشكل متعامد من نهايتها بين أصبعه وإبهامه بايماءه مناشدة قائلا: "هنا أيها الرجال الأشراف، ليس هنالك من خداع"!

أخذت عدة أنفاس وتهيأت للكلام..

انه من الفظاظة في الشرق أن تدخل في موضوعك مباشرة بينما أنا في داخلي أتحسر على تبديد اللحظات الثمينة فقد كانت شفاهي تردد الكلمات العربية عن المحاصيل والأخبار التي تستطلع الجو والتي تتطلبها آداب المعاشرة. الهمس في العلن لمن يجلس إلى جانبك ليس فيه انتهاك للأعراف المحلية، وهكذا كنت افعل باستمرار مع مشاعر جزئية بالاستمتاع كان هناك أمل صغير..وهو مساعدي العربي، بفمه الهامس في أذن الشيخ المائلة، وهكذا استمر الحال لدقيقتين طويلتين وبلا خجل يجب أن يؤكد على خلو المضيف وهكذا كان. بعد قليل لم يبق إلى جانبي غير الشيخ.



قلت له بطريقة خاصة لفتح الموضوع "نعم شيخ محمد" ثم أضفت "أنت تعرف أن الحكومة تقوى على المعاقبة على أعمال الخطأ، وكريمة في مكافأة خدامها المخلصين!.."

وهنا أجاب بعبارات ملتوية "الحكومة هي الأب، الله أولا ثم الحكومة"، واستمر الحوار.

- "قول جيد يا شيخ ولكن الأب يغضب على الكسلان والعاق".

- "الله يخرب بيت أبو الكسلان" قال ذلك بطريقة ملغزة

- "لقد جئت إليك باسم الحكومة، الحكومة بحاجة إلى مائتي رجل وجياد من بني سعيد ونريدهم اليوم"

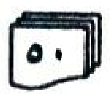
- "أقبّل يدك ولكن".. بدا الشيخ جفلاً في نفس الوقت الذي كان يرفض مؤقتا.. كانت اصابعه تحرك خرز سبحته.(٤) تقسمها، هامسا، وينظر عاليا قائلا الحمد لله وتأملت:

- "ليس عليك ياشيخ محمد،ان تتحمل الحمل الاكبر من هذا الطلب إذا جمعوا الرجال من الحقول، دعهم يجمعون فقط نسبة من كل الاقسام، وفقا لما يمتازون به من قوة وهؤلاء الرجال يؤخذون فقط لايام قليلة وسوف لن تفقد احدا منهم ان شاء الله".

- "ولكن لماذا تريد كثيرين هكذا،وماهو القصد،ياصاحب"؟

شيخ محمد كان اكثر ذكاء من الكثير من ابناء جيله، وفوق ذلك صديق، وقد شعرت بانني لن أندم إذا اطلعته على خططي، قلت له بالنتيجة.

- "تعال" ليس هناك وقت لنضيعه ارسل الخياله ليوصلوا هذه وسلمته حزمة من الرسائل معنونة إلى رؤساء الافخاذ، التي كتبها مساعدي العربي عندما جئنا في طريقنا



بالمركب. الموعد حدد على الغد في خيمة الرئيس الاعلى،الشيخ نايف[٥] التي تبعد حوالي خمسة عشر ميلا. ساعة الصفر هي الثامنة مساء.

ولكن في نفس الليلة كان الشيوخ متواجدين معي ومن الخير لهم ان يكونوا على علم بالخبر.

المساء كان يتقدم، وخلاله تعبنا، ادرت وجهي إلى الشباك المفتوح، مكان التهوية الوحيد في المضيف، لكي انام. قهر القوات بالعمل، ذلك مااحتلت به على نفسي حتى وجدتني اخيرا اخضع لانعكاس النعاس علي ولان المضيف مصان بما فيه الكفاية وهذا ما يجعلك لاتشعر بالحشرات، ويمتلك المضيف حساسية فلسفية حيث يكون كانه مزود بكميات من باودر كيتنك[٦]. عندما استيقظت وجدت معظم الشيوخ الذين ارسلت اليهم الرسل قد وصلوا استطيع سماع اصواتهم في صلاة المغرب. مساعدي العربي جاء ليخبرني بالشعور العام، هذا كان افضل تماما، وانا كنت متاكدا من التوصل إلى علاقات جديدة. ليس هناك تلغراف يعمل في هذه المناطق النائية ليمكنني من الكتابه لاعلام المركز. ان اقرب رجل انكليزي كان يتمركز على بعد اربعين ميلا إلى الشمال، وفكرت مليا كم سيكون فعالا، هيبة الجيش الناجح. هنا منطقة تخلى عنها الاتراك عمليا لمدة عقد من الزمان لانها بالنسبة لهم كانت نائية جدا، وايضا بلا قانون للادارة المفيدة "ذات المكسب". منطقة حتى لاتعرف موطئ قدم الجنود البريطانيين، وتقع فيها الطرق المرهقة التي تتبع مجاري الفرات ودجلة، وإلى الان، وبعد سنة من الاحداث، لم يستطع ضابط بريطاني ان ياتي -وحده- غيري ويجمع القبائل للعمل بدعوة الحكومة.

في اليوم التالي استرحت للاستعداد للبداية. لقد كانت ليلة فاصلة، ولقد ركبت في الصباح من الدواية وكانت رحلة في جو قاسي الحرارة وعندما كنا نطوف حول الشواطئ المفتوحة للهور كنت اهنئ نفسي لانني جلبت معي سرجي الخاص، وذلك لعدم الراحة من السرج الريفي، كان شيئا لايمكن ان ينسى بسهولة، مقعد صغير

وسخيف "ورك العربي يكون اعتياديا ضيقا" لقد كان حنو السرج عاليا، ويرهق جلد الراكب قليلا، حتى اطولهم، مربع كبير من الحديد يعوق الراكب كالذي لدى قطاع الطرق المكسيكيين المتبجحين في قصره. ان عملية جمع المؤيدين غير مريحة إلى ابعد حد بالنسبة لاوربي طوله ستة اقدام. حديدة اللجام المعترضة فم الفرس ايضا، بالرغم من ان الفرس القزم لابد من ان يفكر بها، الا انها فاصلة غير ضرورية.

هبط الظلام وكانت الساعة الثامنة مساء، ساعة البدء لم تخذلني نسبة القبائل، حتى لو كان هناك احتمال السفر بالجمل الخفيف، وتحركت مع موكب فرساني العرب، مائتين من الفرسان الاقوياء إلى ليل الصحراء في تعقب المتمرد القديم. آل بزون(٧) في الطرف الغربي لاهوار العمارة كان هو هدفي الفوري، من هناك اتجهنا إلى الشمال الشرقي محملين، راحلين عبر السهل خلال الساعات القليلة لنصلها عند الفجر.

الراحة لمدة يوم واحد عند ال بزون، لقد قسمت قوتي قسمين، لتمكين سرية خيالة من ان تبقى هناك تحت امره مساعدي العربي، ومع الاخرى خططت لأبدأ مسيرة اخرى في تلك الليلة إلى ال عيسى(٨) إلى الجنوب في المقاطعة التي تحدث فيها مشاهد العمليات.

لقد كنا على ظهور جيادنا عندما بزغ الفجر، ومعه جاءت مصاحبه للريح اصوات هدير القصف المدفعي. ان قرية بدر كما اعتقد تبعد عشرين ميلا إلى الغرب والجنوب الغربي من نقطتنا. توقفت وقواتي قليلا الآن كما فكرت بالانتشار لفائدة اكبر في الاهوار الغربية، مأوى بدر المفضل في منفاه الجديد. ان هواء الصباح الباكر بين الهور والصحراء كان متالقا بشكل واضح، والضوء الاول للصباح ظهر ضعيفا عبر مائة ميل في ريف مفتوح بشكل تام في منطقتنا، خط المرتفعات السفلى لبلاد فارس.

في ساعة واحدة أنهيت كل تنظيماتنا البسيطة، البنادق اوقفت ازيزها، ثم خيم صمت مشؤوم.

الافكار التي تراود المرء: كم يبعد القتال عنا؟ اين كان بدر؟ ميت؟ سجين؟ هارب؟ اذا جاء إلى مقاطعتنا فهو كالقادم إلى المصيدة، وافكار غير مسرة -مع شعور بالقوة يجب ان يغمرنا.

لقد ارسلت مرة أو مرتين حضيرة من فرقتي إلى النقاط المجاورة للرصد والانتظار وان يجلبوا لي المعلومات، والاكثر من ذلك انني لم استطع الاستغناء عنهم وقلبي مطمئن، كل منا كان متعبا وجائعا بعد ليلتين قضيناهما مجبرين في الاهوار. نذبح ونطبخ من الغنم السمينة "ذات الالية" من الريفيين، كانت تهيئتها تستغرق ساعتين، وبعد ذلك تمكنا من أن ناتي على الهيكل المحشو بالأرز بضراوة.

نقطتنا سيطرت وبالرؤية بشكل جيد على كل الاتجاهات ولم تكن لتترك نفسها للمفاجاة من قبل العدو. الطلائع كانوا قد نظموا، واعترف بانني اخترت نفسي ضمن العدد في اول نوبه من مجموع (استراحة من الواجب) نعاس ثقيل سيطر علي، واستيقظت بعد ساعات قليلة عندما كان النهار يوشك ان ينقضي وعلى اضطراب وهياج في خيمتي.

ولكن ما الذي حدث لجبهة القتال الرئيسة، تحت خط السماء الخفي إلى الجنوب؟

المعركة كانت قد التحمت، ووفقا للخطة فان قوتنا تذهب إلى النقطة في الليل من دون علم العدو. ولكن خطأً كان قد حدث هذا الصباح في ساعة الصفر، وقبل ان تصل الطائرات لترمي القنابل على قرية بدر والقريتين الصغيرتين الحافظ. و"العريثم"[٩]، القرى كانت مستيقظة لصلاة الفجر واصبحت مدركة للخطر الذي يواجهها، وفورا اجروا عملية الاخلاء، تركوا المكان وفروا، كان هذا -للاسف- قبل وقوع الضربة.

وكقاعدة عامة كان اطلاق النار من رجال العشائر ضعيفا ويخطئ اصابة الاهداف ولكن هنا في هذه الواقعة كان ثقيلا ومضبوطا لقد كان دفاعهم عنيداً، وعلى اية حال فانهم لم يستطيعوا ان يقفوا ضد قواتنا المتفوقة، المجهزة ببنادق لويس من فوج المشاة



التاسع والتسعين وخيالة المنتفك كانوا اول من عبر الشريش[10] واجبروا المقاومين ودفعوهم خارج قرية بدر وخارج "العريشم" واستجمعوا قواهم ليهاجموا قرية "حافظ" التي دلت الاحداث على وقوف قوة رئيسية من قوات بدر في الخضرة الكثيفة، ولميلين فيها وراء هذا المكان يقف هناك مائة وخمسون رجلا من الرجال الاقوياء وقد تزودوا بكل متطلبات الفرار، إذا كان من الضروري نهوضهم للمشاركة، أو بمعنى الهجوم لتطويق جوانب مشاتنا إذا تم عبور الشريش، واذا تم عبور هذا العائق في منطقتهم، ولكن هذا الاحتمال لم يحدث.

فرسان الريف كانوا بشكل واضح هم اول من يشتبك مع العدو[11] خيالة المنتفك كانوا بقيادة هول، وكانوا متهيئين لتحمل الوطأة العظمى، مفتخرين بانفسهم بشرف والآن مجموعة منهم يكتسحون قرية حافظ. هذا مافعلوه مع فوج المشاة التاسع والتسعين في الاسناد، ولكن لسوء الحظ ونتيجة الاندفاع الطائش والعنيف لطائراتنا والتي لم تكن تدرك الانحسار وجريان المعركة فقد القت قنابلها على القرية بعد حصارها، وقتلت واحدا وجرحت اربعة من اتباعنا ولكن بسبب هذا الحادث البسيط لم يؤهل جيشنا للنجاح التام. خسائر العدو في الساعات القليلة كان ٣٩ قتيلا و٣٩ جريحا. في الساعة ٨.٣٠ صباحا بدر كان هاربا تماما إلى الشمال الغربي وهنا فشلت الترتيبات لأن احدا لم يؤمر بمطاردته ولهذا ففي اليوم التالي كان الميجر ديكسون الذي يعرف وضع المنطقة جيدا اكثر من أي شخص اخر قد اعطى امرا لقسم كبير بالاستطلاع الواسع، وقد تحركوا في دائرة سعتها ستة اميال مخترقين حقول المحاصيل وخائضين مياهها.

عندما ترجع يوما لتحكي ماحدث معي "بشكل غير متوقع" وانا متجه إلى الشمال صارخا لاوقظ من في المعسكر ولاستثيرهم، ولكن ذلك كله لم يوقف بدر عن الفرار. لقد اعلن وصول مارس وريفت كارناك، زميلي من جانب العمارة التي ارتدت، جاءوا في قضية مشابهه لقضيتي. في مثل هذه الظروف من المفيد جدا ان يكون الهدف الاول

هو السعي للقضاء على التشابك. الشيخ سكر النعمة[١٢] شيخ منطقة العمارة يمثل القوة المحلية الرئيسية في المنطقة وكان حاضرا هنا وزعم تعاونه معنا. عربه كانوا يعرفون كل تفاصيل الاهوار وهذا ما سيزودنا بفعالية وتأثير بعيد أكثر مما يعني بأنني سأتمكن من أن اجلب المجندين من المناطق البعيدة من العرب، ولكن بمشاركة سكر ذهبنا سويّا، استخدمنا كل شيء الا الركوب بالطائرات وعندما انطلقت الطلقة الاولى احضر ممثل الحكومة العربي أوراقه إلى خيمة سكر "يا سكر" قال له: "الآن يجب ان ترفع رايتك وتدعو لها كل خيّال من اتباعك. لا تفكر بصداقتك الشكلية مع بدر، وكيف اكلت الزاد معه في خيامه، وفكر بانك من قبيلة تساوي قبيلته، ليس هناك من عذر إذا خذلتنا، ومثل السيد محمد[١٣] ومثلي انا نفسي، لقد اقسمنا اغلظ الايمان باننا سنكون مع الاوائل على عدو الحكومة هذا واذا لم تَدعُ رجالك معنا فسوف تضطرنا إلى الرجوع إلى العمارة وان العار سيلحق باسمك إلى الابد".

لم يكن امام سكر غير الامتثال. تلا ذلك الفزعة، ومن كل جانب جاء الخيالة يجرون بجيادهم بسرعة لمنظر الراية. كل رجل كان يحمل بندقية حديثة. الهوسة "رقصة الحرب" تبعت ذلك وعكست صورة جريئة لرجال الاهوار الاقوياء ونصف العراة وهم يطلقون صرخاتهم الحربية ويلوحون ببنادقهم فوق رؤوسهم ويقفزون حول راياتهم مرة على القدم اليمنى ومرة على اليسرى، بينما خياله سكر الذين هم من اصل اعلى امتدوا على شكل دائرة حول عرب الاهوار. وهنا من الطبيعي ان تكون المقومات إلى صف القبائل ولكن ما يبعث على السعادة ان لا احد منهم يجسد ذلك.

من الواضح أن فريقي يتراجع ليشغل مكانا آخر والحكم على تطورات اليوم أفضل لخطتي، والادعاء بان التقدم أو الهجوم الرئيسي سيكون إلى الجنوب وهل هو للأسوأ أم للأحسن، سيثبت حيث انني عازم على التقدم إلى مشهد العمليات. وقد بدا ذلك بحركة حذرة كمن يرى أعور (وهو نذير شؤم عند البعض) وهو يشير إلى عدم

النجاح، أو ان الفشل جاء من ذلك الصمت الذي تتمتع به الفضاءات الفسيحة لهذه الجزيرة.

تبع ذلك وليمة سخية من الدجاج المشوي، ثم لنمتطي صهوات جيادنا. لقد انتظرت حتى يشرق القمر، ثم لنتحرك ثانية لعبور السهل إلى الحدود الشمالية لمنطقة البو صالح.

كثير من الحيوانات انثنت من المسيرة، وقد اتبعتُ طريقة التوقفات الكثيرة خلال الليل لغرض إراحتهم وللاستماع إلى أصوات الناس الآخرين أثناء حركتهم وكذلك للاستمتاع بالصمت المخيم على مقاتلينا من العرب غير النظاميين خلال ليل آذار، وتذكرت حينها دروسي الخاصة كفارس في الحرس الوطني لشمال سومر سيت في الفلاندرز لعام ١٩١٤ - التي كانت مفيدة بالنسبة لي. الضوضاء التي أحدثوها كانت بائسة. ان لهم عاداتهم في التحرك للحرب.

واحد من المتقدمين للحرب يتقدمهم باغنية مثيرة تحركهم بصوت "عال"، وبصوت رنان، وبنغمة قوية. كثير من هذه أجرأ ان اقول -محترمة بما فيه الكفاية، والكثير منها كانت مرتجلة وتقال باللهجة المحلية، وكثير كذلك منها متطرفة وخليعة إلى درجة لايمكن تثبيتها هنا-وهذا نموذج من الشعر الهزلي المضحك وهو مختل الوزن(١٤).

أيها المحاربون المتحدون التفتوا لي،
صموا آذانكم عن نداءات الرعديد،
تشجعوا لشرب مياه الموت.
أمر الله المقدر لابد أن ينقضي.

***

أيها المحاربون لا تناموا،



ولكن كونوا مستعدين، للانقضاض على الضحية
مثل الذئب البارع في الصيد

***

سوف نذبح وبدون أمر هؤلاء المعتوهين أصحاب بدر(١٥).
ونساءه القريبات المهجورات اللواتي تبعنه قبل فراره.

***

بعد مدّة طويلة من العطش والليلة الصاخبة، وصلنا مع الفجر على بعد أميال قليلة من منطقة البو صالح. وهنا نزلنا في خيام البدو من عرب السوالم(١٦) ومعهم نحو ألف بعير، متجهين شمالا استقبلونا بكميات وافرة من الحليب، واسترحنا عندهم ساعات قليلة.

إن سهل الجزيرة الذي قطعناه وعدنا مرة ثانية لنقطعه هو الآن قفر، لقد حفرت فيه شواهد جديرة بالاعتبار لمكونات تعتبر مفخرة لبانيها. أحصيت أربعة أخاديد رملية قديمة جدا لمجاري النهر وكأنها آثار سد قديم، وقد رأيت روابي كثيرة، خرائب لمدن كانت عامرة ومزدهرة هنا، حقا، كان مجرى دجلة القديم قبل أن يغير مجراه إلى الطريق الحالي، والجزيرة كانت أقليم الفرس المزدهر في الوقت الذي غزاهم العرب وانتهكوا أو انتصروا واستولوا على هذا المِصر في القرن السابع من تاريخنا الميلادي. الميجر ديكسون الذي كان خلال هذه العمليات يمتاز بعمله كضابط اتصال مما أهّله أن يطير فوق هذه الأماكن، اخبرني إن المميزات الرائعة للهواء كانت في مجرى النهر القديم المندثر الذي اشتهر باسم شط الأخضر، ومن المحتمل وجود المواقع الأثرية لمدن السلالات التي لها علاقة ببابل من مكان بعيد مثل لاراك Larak، وأوان Awan(١٧)، وهمازي Hammazi، ومايير Maer(١٨)، وباد طبرق Bad-Tibirq، ونايسن Nisin(١٩) وبقية المدن الاخرى(٢٠).



الشمس كانت عالية وليس هناك من وقت للتباطؤ والتامل. لقد اندفعنا لنصل إلى ال عساف[٢١] في الساعة الحادية عشرة ظهرا، الرجال والحيوانات تعبوا بعد سلسلة الاهوار الليلية، والقلق، وايام الترقب. وعندما وصلنا كانت الحرارة شديدة جدا، والسرج إذا تعرض للشمس لفترة طويلة يصبح حارا جدا، وينفث الجو سموما عنيفة تلفح وجه الانسان، كاللفحات التي تخرج من فوهة الفرن. بدر كما اكتشفنا في الاشهر التالية كان يختبئ على بعد ياردات من المكان الذي مررنا به، وقد اصابه قلق بشكل عفوي لمدة ساعة أو هكذا.

لقد قضينا معظم ذلك اليوم في الراحة عند ال عساف ولكنني أرسلت خفراً في مغيب الشمس لنقطة في الجزيرة لمكان قيل ان المتمرد مع ثلاثين شخصا كانوا يختبئون فيه. وهذا بلا ريب اثبت المشهد الزائف. في الساعة الثانية بعد الظهر كنا نتحرك ثانية وفي غضون خمس ساعات وصلنا ال كردي[٢٢]. عند الوصول إلى هناك، وعند ارتفاع الشمس حدث شيء مثير كالشي الذي ارانا اياه ضوء الصباح، وهو ظهور جسم مهيب لفارس يتحرك في خط الافق باتجاهنا. من يكون؟ فكري تحرر من كل خوف من مظهره هذا، انه يشبه الجندي وهذا المنظر في تضاد مع مظهر ارجل الكلب الخلفية حين العدو، واصدقائي السذج يجب ان يحضروه، ثم فكرت بانه هول ورجاله المرحين، لم يستطع أي منا ان يستغل الفرصة، وعلى اية حال، ارسل كل منا فارسا يعدو بفرسه بسرعة ليستعلم عن الاخر. ثم للتاكيد سارعنا للوصول إلى القرية، التي دخلها من احد الجوانب، ودخلتها انا من جانب اخر.

انا وهول وجدنا مكانا هادئا ظليلا لاستذكار الماضي ونحن ناكل بعض المقانق المعلبة المسخنة على نار احد المعسكرات القريبة، لقد كنت متشوقا لاخبار الحملة والقصة استغرقت وقتا قصيرا. بدر هرب لمكان ناء في اعماق الاهوار، وقواتنا عادت إلى الناصرية. هذه هي النقطة الحاسمة التي تحدد خططي للتحرك باتجاه بيتي.

وأثناء ذلك كان من الممتع مقارنة الملاحظات، ونحن لدينا اليوم السابق الذي خلفناه كله. واحد من سلسلة الأحداث المضيئة، والأعمال المثيرة كان في الخارج عندما كان فوج المشاة التاسع والتسعين يتقدم عبر الفتحة متعقبا العصاة، ظهر شاب عربي من الساتر إلى يمين جبهتهم، ووقف هناك قليلا، ثم تقدم عدة مرات بتردد، وقد ظهر من دون سلاح، الكولونيل لوكسمور، آمر فوج المشاة التاسع والتسعين لم يستطع إدراك هذا الغموض، ولكنه فكر بأنها حيلة سرية، تنويم مغناطيسي لعيون رجاله، وانتبه إلى أنها ستكون مكيدة لإخفاء عمل يُدبّر في مكان آخر، أمر رجلا بارعا في الرماية ليصوب على الهدف الغامض، الطلقة أخطأت والشاب صعق وسقط على الأرض. أخيرا في أثناء ذلك اليوم ظهر عربي يمتطي جوادا إمام الفوج التاسع والتسعين ووقف عنيدا كذلك. فالتفت له الكولونيل ببندقية لويس، ووجهها إليه في الحين الذي ارتعد كل واحد رآه يسقط ميتا تماما، كما اعتقدوا، وعندما فر الحصان من دون فارسه، وكان رمادي اللون، ظهر بعد دقائق الفارس الميت إلى أقصى الشمال وهو يركض مثل الأرنب. والكولونيل الذي سمعت منه هذه القصة أضاف "وأنا مستمر بالضحك، المحتال الكبير سقط عن قصد تحت الساتر ثم ركض على طوله" إلى أن أصبح خارج السلسلة الترابية، لم يكن قد مس طبعا، بعض العرب في صفنا اقروا بأنه لم يكن غير رجل الاهوار الكبير نفسه، ولكن كائنا من يكون، فقد كان رياضيا.

هول وأنا انتظرنا برودة مغيب الشمس، ثم تقدمنا إلى الجنوب باتجاه قلعة الفتحي، وأنا اتجهت إلى الشمال مع أصدقائي على طول الشواطئ لبحيرة المنتفك لتسريحهم في الدواية، وكذلك سأجد حماماً أعيد به نشاطي وليلة نوم مريحة، وهو أول شيء ابدأ به الأسبوع. وعند فجر اليوم التالي كان مركبي ينطلق إلى الشطرة.

بالنسبة لي المطاردة انتهت.

الحواشي

[1] البدعة: قناة البدعة، تقع في الشمال الشرقي من هور الحمار، يسكن على ضفتيها أفراد عشيرة البوصالح والذين يرأسهم بدر الرميض ويقدر عددهم بحوالي (٣٠٠٠) نسمة.

[2] الدواية: تقع في أراضي بني سعيد- مشروع المغيشي حاليا- ضمن أراضي خيون العبيد، وهي اليوم ناحية تابعة لقضاء الشطرة محافظة ذي قار. (من حواشي الأستاذ كامل الجبوري).

[3] وهو ابراهيم البعاج "كانت الإدارة البريطانية ترى بان وجود حاكم إلى جانب موظف اداري في نفس الوحدة الإدارية يخلق البلبلة ويؤدي حتما إلى النزاع على السلطة بينهما".

(الطاهر: ن. م، ص٤٤- ٤٥ عن تقرير سري بريطاني).

[4] السبحة: في الاستعمال العام خلال مناطق الاهوار هذه تتألف من تسع وتسعين خرزة، اقل وأكثر أحيانا، والاختلافات كثيرة في استعمالاتها، فهي تستعمل للصلاة وتحمل للتسلية كعادة عامة شائعة، ورجال القبائل الخرافيين طوروا ذلك إلى الاعتقاد بان للسبحة قوى سحرية كآلة من خلال الوصايا الدينية التي وضحتها. ومن المحتمل ان الطريقة العامة أكثر استعمالا- والطريقة التي يستعملها الشيخ محمد الذي يرى الدين مرشدا في القضايا التي عرضتها عليه- وهي كالاتي: يأخذ خيط خرزاته ويفرز عددا منها كيفما اتفق بين اصبعه وابهامه بكلتا يديه، والخرز التي قسمها يسميها من اليمين إلى اليسار بالصيغة التالية: "الله، محمد، علي، ابو جهل" ويبدا بعزل الخرز مؤشرا على الله بالاولى، والاسماء الناجحة بالخرز التالية، والصيغة تتردد حتى اخر خرزة وصلت اذا تطابقت هذه الخرز مع واحد من هذه الاسماء (الله، محمد، علي) فانه فال حسن ويبشر بخير، وإذا ظهرت الخرز مع "ابو

جهل "يكون العكس" أبو كان جهل معاصرًا للنبي ومن عشيرة قريش، وكان عدوا للاسلام ويلعن من كل مسلم إلى هنا اليوم".

(٥) الشيخ نايف المشاي: احد رؤساء بني سعيد، وهو الرئيس الفعلي لفرع "الكوامل" وهم عشيرة بدوية ترعى الماشية، ترتحل بين البدعة ومنطقة البتيرة، يقدر عددها بحوالي ٦٠٠ نسمة، كذلك لفرع "الشمس" ويسكنون إلى الشرق من البدعة والجنوب الشرقي من فرع الغشيم مباشرة.

"الظاهر/ ن م ٢٢٤- ٢٢٥، عن تقرير سري بريطاني".

(٦) بصف المضيف كانه مشيد بمسحوق ضد الذباب والحشرات.

(٧) ال بزون: فرع من اتحاد عشائر بني سعيد، في الطرف الغربي لاهوار العمارة، يراسهم نايف البوعوجة، وفالح البوعوجة، وفروعهم البري، والخشاب، والمقصود، والمناتشة، والسويد والعليوي، والزعيط.

(٨) ال عيسى: فرع اخر من اتحاد عشائر بني سعيد، يسكنون إلى الغرب من منطقة البتيرة، يقدرعددهم بحوالي ٦٠٠ نسمة، يراسهم سكر ال نعمة الساكن في الشطانية.

(٩) قرية العريشم: تقع بالقرب من منزل بدر الرميض وضمن أراضيه، وبالقرب منها كانت المراكب الحربية البريطانية.

(١٠) الشريش: نهر يجري في أراضي بدر، تقع على جانبيه قرى: الرحال. آل نبهان الحبيش، وآل عبد، وآل خليل، وآل شاهر.

(١١) ان النهوض لم يكن شعبيا مع القبائل العربية، وخلال الحرب فان النجاحات التي حققوها كانت نتيجة قابليتهم للتحرك والانتقال. ينسلون إلى الجوانب وخصوصا بعد هبوط الظلام، ويحصلون على ما يريدون ويهربون دون أن يراهم احد بواسطة أجسامهم العجيبة. إن الجياد الصغيرة للعرب في الريف كانت غريبة المظهر وملساء الشعر، لقد جلبت لتأكل بشكل شاذ وتشرب وتمشي ثلاثين ميلا في اليوم

ولعدة أيام دون أن تدير رأسها. أضف إلى ذلك معرفة العرب بمنطقتهم جعل من غير الضروري لهم أن يحملوا طعامًا وأصبح من الواضح أن قوة واحدة فقط تجمع محليًا وتجهز بتجهيزات مشابهة ويمتطيها رجال مشابهون تكون متمكنة من أن تأتي لإلقاء القبض.

(١٢) سكر النعمة: رئيس آل عيسى في منطقة العمارة، وقد كان بينه وبين بدر نزاع على الحدود التي تفصل بين أراضيهما المتجاورة ولم تتمكن السلطة من فض هذا النزاع على حساب بدر، رغم استخدامها شتى الأساليب السلمية والحربية، لذلك كان سكر يتعاون مع السلطة المحتلة ضد بدر.

(١٣) لعلة السيد محمد الخصاي المنتسب إلى السيد أحمد الرفاعي. ويسكن جزيرة الرفاعي، وهو رئيس إحدى القبائل الكبيرة في المنطقة، أو السيد حمود بن السيد حسن الحصونة الساكن قرب آل ابراهيم المجاورين لأراضي بدر. (كامل سلمان الجبوري).

(١٤) اثبتنا معنى النص بالفصحى مترجما عن الانكليزية وهو في الأصل شعر شعبي، يمكن الرجوع إلى نصوصه في الفلكلور والتراث الشعبي القديم.

(١٥) نعت لأصحاب بدر نكاية بهم.

(١٦) السوالم: فرع من عشيرة آل حميد الساكنة على الغراف، وفي الصحراء الواقعة بين قلعة سكر وكوت الحي، وهم بدو رحل يرعون الابل، ورئيسهم آنذاك منيخر المرعد.

(١٧) أوان: لعله وانه، وهو تل اثري يقع في جزيرة هور الحمار قرب عشيرة عبادة، وفيه اليوم مركز للشرطة.

(١٨) مايير: لعله المجر، وهو تل اثري في أراضي بدر قرب المجر اليوم.

(١٩) موقع نايسين، على أية حال يمكن ان يكون "بحريات" تبعد سبعة عشر ميلاً جنوب نيبور. البروفسور أي. تي كلي الذي أعلمته باكتشاف مخروط عشتار في



موضعه الأصلي، بواسطة الكولونيل كي ستيفنسن الصديق الذي يهوى الآثار، اعتبرت أن المصدر للمخروط من المحتمل أن يكون قد حدد الموقع لهذه المدينة القديمة.

(٢٠) تعرف بأسماء أخرى، أو ان ورود الاسم على لسان توماس غير من اسمها الحقيقي فلم نهتد لمعرفتها. ولعل نايسين هي هنايس: وهو تل اثري يقع في قرية حران الساجت في منطقة الدواية.

(٢١) ال عساف: وهم فرع من بني سعيد يسكنون في اراضي بني سعيد المجاورة لاراضي بدر.

(٢٢) ال كردي: عشيرة من البوصالح، ورئيسهم سحاب الواوي يسكنون ضمن اراضي بني مالك.

الفصل الخامس

اتفاقية استسلام

جاء الرتل النهري عائدا من رحلته النهرية باقفية المراكب المرفوعة[1].

الموقف في الاهوار يبدو غير متغير، ولكنه يظهر على عكس الحقيقة، بدر بدأ يتعب من النزاع غير المتعادل، وديكسون شعر بذلك، عندما شرع للمغادرة كان ذلك واجبه، ورجل الاهوار القديم من المحتمل ان يقدر بانه يستطيع المجيء إلى الحكومة دون ان يخسر المواجهة.

ليس من تفكير منطقي في النهاية يستطيع ان يشكل شؤون الاهوار. وحماية الشيخ من احد الانظمة لم يكن كافيا بالتاكيد للمستقبل، وقوة البعبع تكمن في تطويعه لوقته وهذا يعود اليه، ولنفسية الانسان ان تصبح كما هي عليه وليس هناك رجلان سينظران إلى نفس الموقف في كل وجوهه بالنظرة إياها.

وهكذا كانت الامور عندما خلف دجبرن[2]، ديكسون. راى بدر بصيص امل ودجبرن هذا كثير الحذق والدهاء، ربي ليصل إلى لهيب الادراك. لقد تطلب ذلك خمسة اشهر مزعجة. واللهيب يخفق بعض الاحيان بهذه الطريقة وفي الاحيان الاخرى بتلك، وكانت دائما في خطر التعرض للانطفاء.

وإلى هذا التاريخ فالتمرد كان نداً بكل ما في هذه الكلمة من معنى. انه يمتلك النهر والهور للمحالفات، ومثل هذه المحالفات تكون تحت يد العناية الالهية وكانت غير مضللة، ولكن الان في اخر المطاف، عقابنا الجديد للقبائل اعطاه العنان خلال

---

(1) الترجمة الحرفية هي "الرتل النهري عاد مبحرا إلى الديار بذيول مرفوعة" والذيول المرفوعة ماخذوة من وصف الكلب عندما يعود من مهمة وذيله مرفوع وقد فضلنا "باقفية المراكب المرفوعة" لانها اكثر ادبا بالرغم من انها اقل دقة.

(2) الميجور أي. اج. دجبرن: مدير الشرطة في العراق فيما بعد/ (الجبوري).



خروجه وكانت له تأثيراته. إنهم سوف لن يجازفوا بتعريض أنفسهم للأخطاء ثانية. بدر أصبح بعد ذلك، منفيا بلا أمل من جانبه، لقد أكدّنا حرمانه من حماية القانون وهذا أثر عليه قليلاً. من المحتمل أن آية إدارة غير الإدارة البريطانية في زمن الحرب ستضع ثمنا لغرض إخراج المتمرد خارجا، وبالمثل تتهدد أية قبيلة بالقصف إذا تسترت عليه أو تحاول حمايته، وهذه الصيغة حتى مع وجود القوة الجوية لم تتطور لهذه الدرجة التي وصلتها اليوم، من المحتمل أن تحقق النجاح الحالي، وتعمل على إيجاد رتل نهري غالي الثمن وغير ضروري، ولكننا رأينا أن ذلك غير صحيح، ورغم ذلك فالتقدم لمثل هذه المهمات غير مرغوب به، "كجنر" كما اعتقد استخدم ذلك في السودان، وقد استخدموا ضد رجال العصابات في الهند وفي الحدود الشمالية الغربية. ولكن مع ذلك بدر كان متمردًا ضد الحكومة والحالات قلما تكون متشابهة. إن الطبيعة المنفردة لمعارضته من نواح أخرى كبيرة وهادئة، لم تسحبنا لمثل هذا المدى، ولكن في هذه الظروف فإن مقاومة هذا الرجل الكبير قد تحدث جرحاً صغيرا، لقد كان كمن يضرب بعنف على باب البيت الصغير ويختفي بسرعة، بكثير من الشك رصدنا طريقة اللعبة وكيف تكون، في الحقيقة كنا نمنع أنفسنا من احتلال الحقل، وطبيعي فهو سيستفيد من معرفة ذلك، ولكن لإعطائه المطلوب فهو سوف يستغل الفرصة ليضرب ضربة موجهة. وكذلك سنجبره على الهرب قليلا، ولم نستطع أن نطرده خارجا، وحتى الآن فالأفضلية له.

عامل الوقت كان بجانبنا، والآن بدأ بدر بتهذيب مزاجه. والقوانين الجديدة بدأت بالتغير في الجبهة. تأثير واحد على فعالية المهمات إضافة إلى مشاكل البوصالح من غير ريب كانت ضرورية، في الوقت الذي كانوا فيه يحاولون أن يجعلوا من اسم بدر طريا على شفاه كل رجل، وكان هو يدعو للعدل ليكسب أكاليل الغار كبطل، أو على الأقل ليرفع عنه السمعة السيئة التي كانت عليه، كان ذلك يشكل إزعاجا كبيرًا بالنسبة له. أما الدلالات فكانت تشير إلى أن الوقت حان لخليفته الطبيعي حسن، أكبر أبنائه في

سفينة الشيخ، ولنر أي تجاهل سيظهره الرجل الكبير عما يجري حوله. لم يكن هنالك من سبب وأيضا لا ادري لماذا بدأت المقترحات تحت ظل عدم الحاجة إلى التكهنات الشخصية والتي لن تجد طريقها إلى الاهوار.

كان يومًا جميلاً بالنسبة للمبعوث، السيد، وهو رجل موقر من رجال الله، وصار موقرًا أكثر لأنه ابن رسول الله، جلب من بدر عرضا شفويا للشروط التي سوف تصادق عليها الحكومة. هذا بشرط أن يتنازل المتمرد وان ينادى بحسن خليفة له، مع السماح لكل بيت الرميض بالرجوع إلى أراضيهم الأصلية عدا بدر نفسه الذي سيفارقهم مختارا ويبتعد إلى المحمرة ليقيم ضيفاً لحليفنا القديم الشيخ خزعل. من المحتمل أن يترك علاجه فيما بعد.

نحن أيضًا ربما تمسكنا بغصن الزيتون هذا بتوق شديد. بعد أيام قليلة ارتد بدر بأمل الحصول على شروط أفضل، شهران حاران موحشان من صيف محتوم يتبعهما الكسل، وبدر كذلك استطاع أن يقاوم خزيه ليس لوقت طويل، قرر أخيرًا أن يختبر خاصية الصفو البريطاني.

انه تشرين الأول، ودجبرن كان يقوم بجولة في هور الحمار، هو وبلاتس[1] مساعده النشط، في سوق الشيوخ، كانا يجالسان في المجلس محاطين بهالة رجل من رجال القبائل - وفجأة قدم ثلاثة خيالة كانوا يشاهدون وهم يمشون بعدو سريع خلال السهل، باتجاه خيمتهم. وعندما دنوا علا صوت امرأة في الخارج (هلاهل) معلنة عن حدث أكبر أهمية من مجرد المرور لهؤلاء الخيالة، لقد كانت حقا أغنية - البطل لرجل الاهوار الكبير.

الرجال الخيالة ترجلوا، واحد منهم كان المتمرد نفسه: انه أتى لينجز عملا ليس اقل من التسليم غير الاعتيادي، لقد كانت لحظات جديرة بان تذكر. خرج رجال

---

(١) الكابتن أي. بلاتس.



القبائل، برؤوس محنية، صامتين، خارج الخيمة. بدر جاء متجها إلى الأمام إلى المكان الذي جلس فيه الضابطان البريطانيان فقاما واستقبلا عدوهم اللطيف بكل نبل، الرمال كانت تذري في الخارج. والعناد القديم بدأ ينهار.

انحنى إلى الأسفل ليحرك غطاء رأسه وبطريقة الريف أعاد ربطها ببطء إلى رجل الكرسي الذي كان يجلس عليه أولئك الذين أعلن لهم الطاعة.

"أنا لن أكون غير أحد جنودكم من الآن فصاعدًا" قال ذلك ثم قام على ركبتيه "لقد قمعتم التجبر من جذوره" وهذا كان في روح الرجل الكبير المصاب بجنون العظمة، بدر. ولكنه قال ما فيه الكفاية.

عاد السياسيان متهللين إلى الناصرية، الأخبار الحاسمة أرسلت في برقية إلى المندوب الأهلي في بغداد، وجاءهم الجواب "تهانينا... البهجة ستكون في السماء".



المغامرة الثانية

كضابط في مقاطعة العصيان المسلح
في منطقة بلاد «ما بين النهرين»
عام ١٩٢٠

المقدمة:

من المحتمل ألا يألف القارئ سياسات الحرب العربية، وهذا لا يعني إنها ستقوده إلى متاهات محيرة مع عدة رجال جعلوا من أنفسهم شديدي المراس، ولكن من الواجب أن يكونوا كخلفية لهذه القصة، أو لمحة مختصرة حول ابرز الأحداث العربية وقد وضعت بدون زخرفة عن مشاكل بلاد ما بين النهرين عام ١٩٢٠ التي برزت فجأة. ويحتمل أن يختار القارئ -من الناحية الأخرى المباشرة- بالدخول إلى القصة.

لمدى ستة وعشرين جيلا كانت المناطق العربية كسوريا وبلاد ما بين النهرين والحجاز تحت سيطرة الأتراك، وفي العقد الذي تلا الحرب كانت هناك إشارات إلى نهضة عربية، وقد كانت حركة سياسية انفصالية أكثر مما هي حركة ثقافية، وقد أخذت إيحاءها من الحركة التحررية الغربية.

في منطقة ما بين النهرين كان مصدرها بغداد والمدن الواقعة إلى شمالها بصورة رئيسية، وكانت الحركة تعاني المخاض عند مؤسسيها.

أما القبائل إلى الجنوب فكانت شديدة الانحدار إلى الظلامية، وغير متأثرة بالحركة. كان هناك- وهذه حقيقة- عوامل قربت قبل أيام الحرب فناصل بريطانيا إلى افتراض مربك، وهو أن عظمة ولطف الحكومة سوف يدفع الأتراك إلى إحلال البريطانيين محلهم في تحملهم العبء في الإدارة، ولكنهم لم يكونوا النموذج بالنسبة لرجل القبيلة، فقد يكون التفرد المكتمل والشعور جزءا أساسيًا وشكلاً من مجتمع خاص مكتف ذاتيا، وهو بوحداته يكون ضد تنظيمات الحكومة سواء كانت تركية أم بريطانية أم عربية. لقد وافق ببرود على إقصاء السلطان عبد الحميد- الذي كان يعتبر سلعة بالية- بالرغم من حكمه بالإسلام ولكنه اعتبر أن حزب الاتحاد والترقي[1] قد تشكل من أفكار حرة معاكسة للأفكار التقليدية وخصوصا الشباب المتطور الذي اطلع على أوربا وأصالة قادته الذين يجسدون الخير.



إن رجل القبيلة ببندقيته التي تصاحبه ويعيش حياة العزلة والكفاف في أماكن نائية يعتبر نفسه هو الحاكم، ويتم ذلك بمدى قناعته بقوة الحاكم الأساسي بالرغم من بعد المسافة، تلكم هي حالة خاصة ويجب أن نتذكر حين نسترجع الأحداث بأننا يجب أن نضع أنفسنا أو نحل محل القبيلة في بلاد ما بين النهرين.

في السنوات التي تلت الحرب العظمى لم تظهر مشاكل الإدارة بعد. لقد كانت حركة القومية العربية -وكما ظهرت أخيرًا- حافزاً ممتعا للجماعات الواعية. لورد "كجنر" كان قائدا عاما في الهند وقد جاء ليتصل بذوي النفوذ في تراث الخلافة الإسلامية ومن خلال المسلمين الهنود، انه الآن في مصر. من خلال حركة القومية العربية رأى الإمكانية لإعادة الخلافة، وسيسمح ذوو النفوذ في هذه المنطقة لبريطانيا العظمى أن تفد إليهم بعد أن يعلنوا الجهاد، فيتفادى الانكليز خطر التواجد الألماني في الشرق الأوسط الذي قد يتم عن طريق العلاقات التركية الألمانية، وقد ظهر الخطر، ونمت ملامحه خلال الحروب في البلقان، وبلغ مداه في الحرب العالمية.

لقد بدأت الحرب العالمية ومعها حدث التدخل التركي، كما وقع الاختيار على المرشح الذي سيقود الحركة العربية وهو الشريف حسين، شريف مكة وحامي الأماكن المقدسة، وكان ذلك من المواضيع العاجلة لثورة العرب وستؤخذ له البيعة من المسلمين في الأماكن المقدسة، ولكن الشيء الآخر الذي بقي هو سوريا وبلاد ما بين النهرين، والتي يجب استمالة عناصرها إلى جانبه، ولكن يجب النظر إلى مركز العدو في تلك المناطق، لقد اندلعت ثورة العرب خلال سنوات الحرب ويجب أن تؤخذ بعين الاعتبار المساعدات المالية التي جاءت من حكومة بريطانيا والتعهدات السياسية للحكومة البريطانية لتحريرهم من حكم الأتراك ولإسناد الحركة العربية.

لقد كانت تلك التعهدات والصعوبات التي ظهرت بينهم والتي سببت فيما بعد سوء الفهم وكانت مصدرا لكثير من المشاكل، وكانت السبب في الهياج الذي عم أخيرًا منطقة الشرق الأوسط.



أن تسمية "الثورة العربية" أو "ثورة العرب" من المحتمل أن يكون فيها شيء من التضليل. كانت العربية تشمل منطقة ضيقة نسبة إلى العرب، من الناحية الجغرافية كانت الحجاز تشمل تلك المنطقة الممتدة إلى الغرب والساحل، والسيطرة كانت جغرافية وليست هناك روابط سياسية[٢]. هنالك مناطق كثيرة لم تؤخذ في الاعتبار مسؤوليتها العربية مثل: نجد، وشمر، ومسقط، والبحرين، والكويت، كل واحدة لها حاكمها، واعتمادها على الإمكانيات الموجودة فيها وسوف لن تكون بأي حال من الأحوال تحت سلطة الشريف حسين، لأن الثورة لم تصلهم. لقد كانت فعاليتها الرئيسة في منطقة محددة بالحجاز ومنطقة المتوسط التي كانت مسرحا للحرب. هذه الأقطار وبلاد ما بين النهرين وحدها اعتبرت الفرصة السياسية ملائمة لها فقط.

إن السيطرة من خلال التمثيل الدبلوماسي على منطقة ساحل البحر الأحمر كانت منوطة بحكومة الهند، وان ساحل البحر الأحمر - وبواقعية أكثر - والمعاهدات مع الحجاز التي قامت بالثورة العربية كانت مسؤولية دائرة أجنبية أخرى، وعلى ذلك جاءت النتيجة بان مسرحي الفعاليات الحربية أصبح من مسؤولية دائرتين أجنبيتين مختلفتين. أما مسرح البحر المتوسط المؤلف من الدائرة الرسمية العربية (الصورية) ومصر فقد كانت تحت مسؤولية ضابط أجنبي (بريطاني)، وبلاد ما بين النهرين كانت تحت مسؤولية ضابط الهند (منطقة الهند التي يسيطر عليها الانكليز)، وعندما انتهت الحرب كانت هناك وجهتا نظر حول السياسة التي يجب أن تتبع في البلاد العربية.

١. حكومة عربية تختار من العناصر التي قامت بثورة العرب.

٢. رأي المدرسة الهندية: وهو أن تدير بلاد ما بين النهرين نفسها بنفسها وتوريطها بمشاكل كل من تركيا، وبلاد فارس، ونجد. أما وجهة النظر حول حكومة العرب وهي أن الشريفين والحكومات القومية يجب أن تتوحد تحت ظل مملكة واحدة، أما سوريا وبلاد ما بين النهرين فيجب أن يحكمها ملك من أسرة الشريف حسين والعناصر العربية.



المدرسة الهندية تقول بأنه يجب سيطرة العناصر العربية على منطقة بلاد ما بين النهرين وذلك لنظرتها المتخلفة وتعصبها إلى قبيلتها، وحاجتها إلى السلام مع تركيا، وكذلك وجود الجيش البريطاني في نفس الوقت ببلاد فارس، والخطر الروسي وقابليات ابن سعود الذي أصبح الآن قوة لا يستهان بها، حاكم نجدي وعدو للشريف حسين.

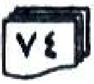
الأول كان مثاليا والثاني كان تقليديا. القضية لم تكن مبسطة أو موضحة حسب وجهة النظر الفرنسية التي كانت ضد الشريفيين. أما الشريفيون فقد جاءوا بثورة العرب كقوميين ليعرفوا ولم يكونوا مميزين من قبل الفرنسيين أو بالأحرى لم ينالوا تقدير فرنسا واعتبارها، بل كانوا مسندين من قبل بريطانيا التي لقنتهم ودربتهم، لقد كانت عواطفهم (العرب) مع الحكومة العربية وضد الفرنسيين وضد المدرسة الهندية. وفي السنتين اللتين تلتا الحرب أخذت وطنيتهم شكل اتجاهين هندسيين، احدهما ضد الفرنسيين في سوريا والذي فشلوا به في تنفيذ أهدافهم، والآخر ضد الانكليز في بلاد ما بين النهرين والذي نجحوا به بكل معاني الكلمات، وباختصار أيضاً أن الوعود الحربية، التي صعدت الأحداث وحالة الشؤون إلى هذا الحد هي ما يلي:

١. في بداية الثورة عام ١٩١٥ - ١٩١٦ قدمت الحكومة البريطانية عرضا على الشريف حسين بما يلي:

الموضوع: "مناطق ساحل البحر المتوسط"..

بريطانيا العظمى مستعدة للاعتراف وتأييد استقلال العرب بكل أقاليمهم [تضم شرقي سوريا وأسفل بلاد ما بين النهرين].. وعندما ترى بريطانيا العظمى الموقف مناسبا ستنصح العرب بذلك وستساعدهم بتأسيس ما سيظهر بأنه الشكل المناسب للحكومة في هذه الأقطار.

ومن جهة أخرى أصبح من المفهوم أن العرب قد قرروا أن ينشدوا بريطانيا العظمى فقط النصيحة والقيادة.



مع تمييزنا وتقديرنا لبغداد والبصرة، فالعرب من جانبهم سوف يعترفون بان دوائرنا ومؤسساتنا ومصالح بريطانيا العظمى تحت عناية خاصة من الإدارة المسيطرة وسنعمل على تخليص هذه الأقطار من السيطرة الأجنبية ولرقي ورفاهية عامة الناس ولحماية مصالحنا الاقتصادية.

٢. في آذار ١٩١٦ كانت معاهدة سايكس- بيكو[٣] قد وقعت سرا بين فرنسا وانكلترا. هذا مما وطد الحدود بين مناطقهم التي يسيطرون عليها في البلاد العربية بعيدا عن الأتراك. فسوريا أصبحت منطقة تحت النفوذ الفرنسي أما أسفل بلاد ما بين النهرين (ويقصد به العراق) فقد أصبحت تحت نفوذ بريطانيا العظمى.

٣. في تشرين الثاني ١٩١٧ كان وعد بلفور[٤] قد أعلن والذي يقر بتأسيس فلسطين كمناطق منفصلة عن البلاد العربية وتحت الوصاية البريطانية.

٤. في ٧ تشرين الثاني ١٩١٨ بعد نهاية الحرب مع تركيا كانت المعاهدة الانكلو- فرنسية قد تمت بالشكل التالي: "إن الهدف النهائي لفرنسا وبريطانيا العظمى وهو التحرير النهائي والكامل للشعب الذي اضطهد من قبل الأتراك، وتأسيس حكومات وإدارات وطنية تقودهم إلى التخلص من التخلف وتمكينهم من حق الانتخاب المحلي الشعبي.. وبعيدا عن الاستغلال بالإضافة إلى التعهد لهم بالمساعدة، وليس هناك خيار غير التأكيد على مساعدتهم في تأسيس الحكومات والإدارات التي سيختارونها بأنفسهم".

وخلال فترة الهدنة الأخيرة كانت منطقة سوريا التي تقرر أن تكون تحت النفوذ الفرنسي، كانت تسيطر عليها بريطانيا وتحت إمرة الجنرال اللنبي القائد العسكري المنتصر[٥].

القوة الشريفية كانت مساعدة للجيش مع نواتها من الضباط الانكليز وقد ظهرت بشكل معقول لإدارة دفة الأمور بعد أذن الحكومة وبنفس المرتبة كان العهد العراقي[٦]



نظاماً قومياً لسكان بلاد ما بين النهرين وهؤلاء خلصوا أنفسهم من وضعهم المؤقت ليدخلوا في مشاكل التحرر لبلاد ما بين النهرين، وبكلمة أخرى، كما اطمئنوا على الإدارة هنا حاولوا أن يعملوا ذلك في سوريا كخطوة تمهيدية أرادوا التخلص من السيطرة والقيود الأجنبية. سوريا من الآن فصاعدا هي المنبع الرئيسي للدعوة العربية ولنشر الأفكار والمعلومات، وهي نهر من الذهب، وقد تحركت تحت علم الدوائر البريطانية في بلاد ما بين النهرين، وانبثقت هناك بعد ذلك.

وحين العودة إلى الاتفاقية الانكلو- فرنسية التي ظهرت لتمنع الحركة القومية من الفاعلية والأسباب المعنوية والحوافز. لقد كانت نتائج هذه المعاهدة غير موفقة وغير محظوظة. كما أنها بدت بكل الديمقراطية- والأفكار المثالية العالية التي لبستها غير ذات جدوى وغير ذات فائدة لمجتمع قبلي بحاجة لكل شيء.

كيف تعطي "الاستقلال الناجز والنهائي" لشعب لا يعي معنى السياسة؟ إن العامة في الأماكن التي تقع جنوب بغداد كانوا يدعون غالبا جماعة الشيعة. إنهم يعيشون حالة البدائية والبساطة، ولكنهم مجتمع قبلي مكتف ذاتيا، وفي كثير من الأماكن لا تجد ذكرا أو معنى لكلمة "حكومة" على الإطلاق. أما اعتبارهم الحقيقي فهو للحرية من أي نوع من الحكومات كانت اكبر حجما من الوحدة القبلية.

كيف تقيم "حكومات وإدارات وطنية تقودهم إلى التخلص من التخلف وتمكينهم من حق الاختيار... الخ" في بلد غالبية رجاله جهلاء؟.

إن إقامة حكومة محلية كل هيئاتها وشخصياتها من طبقة متقدمة واحدة- وهم أهل السنة، خصوصا في بغداد والمدن التي تقع شمالها، وطبقة من رجال القبائل بقيادة ضباط بريطانيين سوف لن يجعل هناك اعتراضا. ويمكن توظيف مجموعة ممن يدعون "الأفندية" الذين غالبا ما يكونون بغير خبرة أو تجربة أو يكونون قد تعلموا في المدارس التركية وسيشغلون الوظائف في بلاد ما بين النهرين (وبعيدين عن القضايا الداخ



وغير متعلقين بالأتراك أو الروس أو الفرس أو نجد) ومقتنعين بحالة "إمكانية الانتخاب المحلي الشعبي.. وما سيختارونه بأنفسهم".

بعد فترة وجيزة كان الشيعة ورؤساء العشائر التي أدخلت ضمن بلاد ما بين النهرين الوحيدين بين البلدان العربية الذين وضعوا الصعوبات لتشكيل تكوين مقبول ينسجم مع دعوات الاتفاقية الانكلو -فرنسية- وحتى ذلك الوقت كان الكثير من السكان في بلاد ما بين النهرين قد رضخوا أو تعاونوا مع الإدارة البريطانية وبقدرتهم الشرقية قبلوا إقرار الجيش وكانوا مهيأين كما يقول العرب: "قبّل اليد التي لا تستطيع أن تقطعها) لقد جاءت المفاجأة مع نقاط مؤتمر السلام الأربع عشرة التي جاء بها الرئيس ولسن وفي غضون شهر كانت النتيجة هي الاتفاقية الانكلو- فرنسية، وخلال ذلك خرج أهالي بغداد الذين نصبوا الأمير العربي، فورا وداروا في الشوارع وهم يبكون على آمالهم التي ذهبت، في الشوارع والمقاهي(٧)، أما في القبسن فلم يحدث أي شيء لمدة من الزمن وبعد ذلك سيطرت فكرة غامضة على الناس بان المستقبل بيد الأمير العربي التقي، فلا ضرائب ولا إيجار أراضي ولا ظلم، ولكن فقط حرية القبيلة، تحرر من كل مالك.. هذه الفكرة أحرزت تقدما، كما أن العتبات المقدسة وحاملي الشموع المخلصين ابتهجوا لتخلصهم من الحكومة الكافرة.

إن جماعة ذات تنظيم سري ضد مصالح الحكومة قد دعت للنهوض والعمل(٨) كذلك بدأ الإعداد لتأسيس الجيش(٩)، الذي لم يكن موجودا.

في البداية كان على المندوب الأهلي وبتوجيهات من الحكومة البريطانية أن يتخذ خطوات ضرورية ليتحقق من الرأي المحلي، ولم يكن هناك رأي ذو شكل في هذا المكان أو العصر وعليه لا داعي للتحقق منه.

اللقاءات العامة كانت تدعى "سياسية"، من الذي يغتنم الفرصة ليشجع الناس ليقولوا هل يرغبون في الأمير؟ وإذا رغبوا فأي نوع من الإدارة قد قرروا وهكذا؟(١٠) ولكن آفاق الناس العقلية والفكرية قد تطابقت مع آفاقهم الطبيعية، أما القبائل فلم



تدعُ إلى شكل من الدستور أو التكوين أو من إيجاد نظام لأنهم يسيرون أنفسهم بأنفسهم مع سادتهم الحاليين... أما البريطانيون فكانوا كتلة معتبرة، وطبعاً الرجل "الذي حواسه بعينيه" يكون شعوره المترفع بدمه، وهو إلى الآن يحمل فكرة أن البريطانيين لا يمكن تغييرهم ولا يستطيع تغييرهم إلا الله وهكذا سيكون أمر الله.. انه يحمل الآن فكرة في رأسه، وهي: انه سيهزأ أو يهين السلطة، وسوف يورط البريطانيون أنفسهم. لقد أصبح الآن مستعدا وكوسيلة للاستفزاز أو الإثارة. الدينيون والقوميون، وجدوا عند التفاتتهم غذاء وفيراً في المجندين البريطانيين المكرهين على الخدمة، ومن المعارضين لحملة (أو مغامرة) بلاد ما بين النهرين وقد تطلب ذلك قطع الحبل عن المركب.

تلك كانت بذرة المشاكل التي برزت وعن قريب سنحصد ثمرة الجهد وهي زوبعة مأساوية كأنه مرض سمنة، فالحوادث قفزت فجأة، سوريا كانت في هياج[١١] وكذلك مصر[١٢]، الحكم الذاتي أو الإدارة الذاتية، كانت هي المسالة التي تدور في حقل السياسة. المادة (٢٢) من ميثاق عصبة الأمم التي تنص على: "إن رغبات الشعوب هي مسوؤلية يجب أن تؤخذ بنظر الاعتبار في حالة اختيار الانتداب".

ما الذي لم تقله بلاد ما بين النهرين؟ كان هناك شعور جماعي بان الكتلة البريطانية كانت معتبرة. ولكن الشريفيين في سوريا اعتبروا أن المادة (٢٢) بشكل بديهي تبطل اتفاقية سايكس- بيكو الذي يجعل من سوريا تحت الانتداب الفرنسي، ولهذا كانوا ضد الانتداب الفرنسي.

الرئيس ولسن اقترح في مؤتمر السلام أن يجري استفتاء عام لسوريا ولهذا الغرض كان أربعة من ممثلي الدول الكبرى مرشحين للذهاب والتقصي، ولكن لم يوافقوا على ذلك عدا المرشح الأمريكي الذي ذهب وحيدا إلى سوريا، ومن موضعه المثير للاستياء أصبح نقطة بؤرية لعدم الراحة، وعندها هاجت دمشق.

إن اعتقال السوري المؤيد لفرنسا من قبل الجنود البريطانيين كان دائما يجلب المشاكل إلى الرأس، إن مشاكل الفرنسيين في سوريا تعود إلى آلية الضباط الانكليز الذين يخدمون مع الشريفيين. على أية حال كانت هناك لحظات سيئة بالنسبة للاتفاق الانكلو- فرنسي، فقد حدث توتر بينهما، وقررت مصر أن تجلو القوات العسكرية كافة خارج اراضي سوريا. وهكذا سيطر الفرنسيون على البلد والإدارة الشريفية.

في غضون ستة أشهر كان الأمير فيصل وقواته العربية في حرب مع قوات الانتداب، وفي تموز ١٩٢٠ كان الجيش الفرنسي يلاحقهم في ذلك البلد في قوة عسكرية مستعدة للهجوم.

قدرت بريطانيا العظمى جهود العرب ومساعداتهم الحربية ولكن فلسطين وسوريا بقيت حاليا مغلقتين، وبقيت بلاد ما بين النهرين مركز الطموح لكل العرب القوميين.

الحواشي

* تكونت "جمعة الاتحاد والترقي" في الروملي بسلانيك سنة ١٩٠٨ لتحارب الفساد الذي استشرى في الامبراطورية العثمانية انذاك. وقد اسهم في تكوينها الاتراك والعرب وسائر ابناء الاقوام الاخرى على حد سواء، ثم انتقل مركز الجمعية إلى استانبول، وفتحت لها فروعا في معظم البلاد العثمانية المعروفة، فمنها في العراق ببغداد والحلة والنجف والبصرة والموصل، فلما زاغت هذه الجمعية عن اهدافها في "الحرية والعدالة والمساواة" تالف "حزب الحرية والائتلاف" في ٨ تشرين الثاني ١٩١١ ليخفف من غلواء الاتحاد والترقي.
انظر: الحسني: تاريخ الاحزاب السياسية العراقية، ص٧.

** هذه وغيرها مما سيرد، محاولات عمدت السلطات البريطانية من خلالها لاخفاء اخبار نجاح ثورة الشريف حسين في العراق أو التقليل من شانها، وكان هدفها من ذلك اخماد روح الاستقلال بين السكان العرب المحليين.
"Lawrence J.E, seven Pillars of Wisdom. Nay, 1938, P. 60"
ولكن اغلب المشتغلين بالحركة الوطنية العراقية كانوا يعدون شرفاء مكة ابطالا قوميين يصلحون لقيادة البلاد العربية نحو الاستقلال، وقد وصلت ثقة معظم العراقيين وخاصة في بغداد والفرات الاوسط، بهؤلاء الشرفاء درجة اصبح معها ترشيح احد أبناء الشريف حسين لعرش العراق مقبولا.
"د. عبد الله فياض: الثورة العراقية الكبرى، ٢٤٨".

- لما اتفق الملك حسين بن علي مع الحكومة البريطانية للوقوف امام السلطة العثمانية ومساندة الحلفاء، خافت فرنسا من ان تضيع مطامعها في الشرق العربي، فعقدت اتفاقية سرية بينها وبين بريطانيا في ١٥ - ١٧ مايس ١٩١٦، وقع عليها السير مارك سايكس باسم الحكومة البريطانية، ومسيو جورج بيكو باسم الحكومة الفرنسية، ونصت هذه الاتفاقية على تجزئة البلاد العربية التي كان الملك حسين يجاهد في سبيل وحدتها، وتقسيمها إلى المناطق الخمس التالية:

١. المنطقة الحمراء: تكون تحت ادارة الحكومة البريطانية المباشرة وتشمل ولايتي البصرة وبغداد من العراق، وثغري حيفا وعكا من سوريا الجنوبية.
٢. المنطقة الزرقاء: تكون تحت ادارة الحكومة الفرنسية المباشرة وتشمل على كليكية وجزءا من الاناضول وقطعة من سوريا الغربية.



٣. منطقة A: تكون جزءا من دولة عربية تشكل تحت الحماية الفرنسية، وتشمل ولايات دمشق والشام وحلب والموصل، فيكون لفرنسا حق الافضلية في المشروعات والقروض المحلية وتقديم المستشارين والموظفين الاجانب لها.

٤. منطقة B: تكون جزءا من دولة عربية تشكل تحت الحماية البريطانية وتشمل الاراضي الواقعة بين فلسطين والعراق والمسماة "شرق الاردن" فيكون لبريطانيا حق الافضلية في المشروعات والقروض المحلية وتقديم المستشارين والموظفين الاجانب لها.

٥. المنطقة السمراء: تكون تحت ادارة دولية وتشمل القسم الجنوبي من سوريا أي فلسطين- أن تستشار روسيا في نوع هذه الادارة ويتفق عليها مع باقي الحلفاء والملك حسين.

(...) ارادت بريطانيا ان تكافئ اليهود الذين خدموها خدمات جليلة في الحرب العظمى، واهم تلك الخدمات الدور الذي لعبوه في ادخال الولايات المتحدة الامريكية في الحرب إلى جانب الحلفاء، فكتب اللورد بلفور وزير خارجية بريطانيا في اليوم الثاني من تشرين الثاني سنة ١٩١٧ الكتاب التالي إلى اللورد روتشيلد زعيم القضية الصهيونية:

عزيزي اللورد روتشيلد:

يسرني اعظم السرور ان اوجه اليكم باسم الحكومة البريطانية التصريح الاتي بالعطف على الأماني الصهيونية اليهودية وهو تصريح عرض على الحكومة البريطانية واقرته، وهو:

ان حكومة بريطانيا تنظر بعين العطف إلى انشاء وطن قومي للشعب اليهودي في فلسطين، وسوف تبذل ما في وسعها لتحقيق هذه الغاية، ومن المفهوم انه لن يعمل بشيء قد يضر بالحقوق المدنية والدينية للطوائف غير اليهودية الموجودة في فلسطين ولا بالحقوق السياسية التي يتمتع بها اليهود في أي بلد اخر.

بلفور

وزير الخارجية البريطانية

(...) الجنرال اللنبي: قائد الجيوش الحليفة خلال الحرب العالمية الاولى في جبهة فلسطين وسورية.

حزب العهد العراقي: تاسس خلال الحرب العالمية الاولى واهدافه:

أ- استقلال العراق استقلالا تاما ضمن الوحدة العربية وداخل حدوده الطبيعية.

ب- طلب المساعدة الفنية والاقتصادية من بريطانيا العظمى على ان تكون هذه المساعدة بالثمن وان لا تمس استقلال العراق التام.



ج- انهاض الشعب العراقي ليباري أرقى الأمم الغربية.
د- السعي لخير الأمة العربية عامة.
"أمين سعيد: الثورة العربية الكبرى ٢: ٢١).

" يقول الشيخ محمد رضا الشبيبي عن الدولة الجديدة التي قامت في العراق بعد الثورة أنها "مستقلة ذات سيادة في الظاهر، ولكنها لم تكن كذلك في الواقع، فالاستقلال كان استقلالا ملوثا أو ناقصا نقصا فاضحا، بل كان الحكم ثنائيا بين الانكليز وبين فريق من صنائعهم وأعوانهم في غالب الأحيان، وكان الغنم للسلطة البريطانية وصنائعها والغرم على الشعب العراقي، واتضح لهذا الشعب العظيم أن هناك خطة استعمارية مرسومة اعتبرت الثورة العراقية الكبرى بموجبها جريمة منكرة وحركة مضادة لمظاهر التقدم والحضارة. وصرح بذلك مع بالغ الأسف- أكثر من واحد من المحسوبين على السياسة من أبناء العراق، وهكذا عوقبت المنطقة الثائرة كلها بالحرمان" (فقيدنا الكبير) ج الايام، ع ١٢٤، في ١٠/ ٩/ ١٩٦٢.

"" بعد تتويج الملك فيصل على العراق سنة ١٩٢١ أنشأ جعفر أبو التمن مع عدد من صحبة حزب حرس الاستقلال السري، وتزعم ابو التمن هذا الحزب وبدا يجمع صفوف ابناء الشعب لمقارعة الانكليز وطردهم وتخليص الوطن من ارجاسهم. "ج. المستقبل البغدادية، س٣، ع ٦٠٥، في ٢١/ ١١/ ١٩٦٢".

"" كانت اول وزارة تشكلت في الحكم الوطني بعد ثورة العشرين هي الوزارة النقيبية الاولى في ٢٥ من تشرين الاول ١٩٢٠، وكان الفريق الاول جعفر العسكري وزيرا للدفاع الوطني فيها. وبدا احرار العراق ورجاله يعودون إلى البلد من كل صوب وحدب، وعاد قسم كبير من الضباط ا الذين اشتركوا في الثورة العربية، وقد قررت الوزارة تاسيس جيش عراقي ليكون دليلا من دلائل الاستقلال وتم تشكيل الجيش العراقي في ٦ كانون الثاني ١٩٢١.

"" يشير إلى البلاغ الانكلو فرنسي والذي تنص احدى فقراته:
".... اننا نرغب بصورة خاصة ان تقدموا الينا بيانا موثوقا عن وجهة نظر السكان المحليين في مختلف المناطق حول الامور المعنية فيما يلي:

١. هل يرغبون في دولة عربية واحدة، تحت الوصاية البريطانية تمتد من الحدود الشمالية لمدينة الموصل حتى الخليج العربي؟
٢. هل يرغبون في هذه الحالة في رئيس عربي بالاسم، يراس هذه الدولة الجديدة.
٣. من هو الرئيس الذي يريدونه في هذه الحالة؟

"A.T. Wilson, A. Clash of Loyalties, P. 110- 111".

* بعد اندحار الاتراك امام جيوش الحلفاء قبيل نهاية الحرب العالمية الاولى تاسست الادارة الفيصلية في سوريا، وقد اسهم جماعة من العراقيين في ادارة حكومة فيصل هذه، ويظهر ان العراقيين الموظفين في حكومة سورية استفادوا من مراكزهم المهمة في تلك الحكومة، فاخذوا يعملون على ادارة الحركات الوطنية الرامية لانقاذ اجزاء من وطنهم من ايدي السلطات البريطانية التي كانت تسيطر على العراق حينذاك.

انظر: "د. عبد الله فياض، ن. م، ٢٥٠".

*** للثورة المصرية اثر كبير في تشجيع العراقيين على الثورة ضد البريطانيين، قوى عزائمهم فاخذوا يستخفون بالانكليز وبمقدرتهم الحربية وبهذا انتعشت الروح الوطنية انتعاشا هائلا.

"محمد طاهر العمري: مقدرات العراق السياسية ٣: ٩٩".



المحتويات

المغامرة الثانية كضابط في مقاطعة العصيان المسلح في منطقة بلاد ما بين النهرين عام ١٩٢٠م	
١)	الحوادث المقبلة
٢)	الشطرة
٣)	ميراث الأتراك
٤)	طرق البريطانيين
٥)	لعلعات رصاص الثورة
٦)	السيطرة على الحصن (القلعة)

الفصل الأول

الحوادث المقبلة

مرت الأشهر الأولى من عام ١٩٢٠ بشكل مسرّ جدا في بغداد. فعلى سبيل المثال كانت هناك أمسيات الأحد المسرة التي تقيمها المس غرترودبيل، بعد رياضة ركوب الخيل في الصباح، وكنا في شوق لقضاء مثل تلك الأوقات مع المرأة الرائعة نفسها. أمسيات الأحد المسرة- كما يدعونها- كانت تقام في حديقة المس غرترودبيل نفسها وكان يدعى إليها نخبة من أهل الفكر في بغداد إضافة إلى أولئك الذين كان إخوانهم في المعسكر الشريفي ومع الأمير فيصل في سوريا. لقد أعطت أمسيات الأحد المسرة نتائج جيدة وكانت منبرا حرا. وقد أضاف الشباب العرب الكثير إلى قناعاتهم حول أحداث الساعة السياسية واتفاق سايكس - بيكو والصهيونية ووعد بلفور والاتفاق الانكلو- فرنسي والموصل وقضية تركيا إضافة إلى أمانيهم وطموحاتِهم.

للمرة الثانية أُمنح امتياز الحياة مع المجموعة رقم واحد، الرفاق السياسيون الذين يمثلون النخبة السياسية في البلد والذين يتطلب عددهم حضورا رئيسيا متألقًا كالسر ارنولد ولسن، المس بيل وآخرين. وهذه المجموعة لا تعرف لحظات الملل، كان هناك بيانو رائع من دار المندوب السامي الألماني القديم في بغداد، وفجاة تذكرت تلك الليالي التي من المحتمل ان نسمع فيها معزوفة جي إم ولسن (مقدمة إلى باكليسي الاول) وما تبقى في ذاكرتي من معزوفات شومان ومعزوفات شوبان (الميجر بولونيس)(١). الزوار الكبار والعظام الذين أتوا من خارج القطر جعلوا محل إقامتهم مع رفاق المائدة رقم واحد. وهؤلاء النبلاء جاءوا من رئاسة حكومة الهند، يعملون في مسح الاراضي وفي رحلات طويلة إثارية للعوالم المعروفة والمشهورة وجنات بابل وقد وصلوا أخيرًا سالمين.

بالإضافة إلى ذلك كان هناك تيار من الضباط الذين يغادرون البلاد ويعودون اليها حسب تقسيماتهم الخاصة ومناطق عملهم مثل "لجمن"(٢) و"صون"(٣)، رجال على



معرفة عسكرية بالأرض وبالناس، جعلوا من حياتهم دراسة، عدوا أن أمسيات الأحد المسرة شيء مريب وإذا لم تكن فعالة فهي مؤسسة اجتماعية خطرة.

إن عبودية كرسي الوظيفة، التي أرسلت لإشغالها كمساعد ثان في سكرتارية "الدخل الحكومي" خلال عودتي من سفرة فراق الوطن كانت اقل من رغبتي، مقارنة بحياة حرة قضيتها ممتطيا سرج جواد في وظيفة ضابط سياسي لمقاطعة ولذلك اشتقتُ ثانيةً.

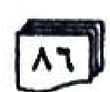
إنه مايو وقد اندلع العصيان المسلح[٤] ضدنا، كان هناك هياج وإطلاق نار بشكل مستمر، وقد قدر المفوض الأهلي أن عدد الجنود غير كاف لصد العاصفة. أصبح لون جي اج كيو احمرًا، كقطعة لحم خنزير مقلي حين تنظر إليه. إن التحصين وزيادة الجنود أن تطلب الأمر أو بالضرورة أصبح أمرًا لابد منه في الضرورات القصوى. كما أن تسريح الجيش لسياسة التقليل وتشغيل الجيش في نهاية هذا العام، ليست سياسة حسنة وكذلك أصبحت الحديدة ساخنة جدا في "بلاد فارس". في الحين الذي كانت "قوات شمال بلاد فارس" مكونة لرصد وصد البلشفيك (الروس)، كانت قد تعطلت خلال بحر قزوين، تلكم القوة التي كنا نفكر دائما بتحريكها في تلك الأيام، ولكن العامل الاقتصادي قلما كان يخدمنا لتأسيس جيش يرابط في بلاد فارس كمحطة على المرتفع بالإضافة إلى معسكر الجيش في كرند، إذا سار يميل -على أية حال- بدأ الشتاء، وان موجات الجيش وعوائلهم العاملة وجي، أج، كيو، رأى أن يحضر بنفسه للتحرك إلى بلاد فارس إلى وقت الصيف. اعتقال الأهالي في بعض المناطق السياسية كان إجراء تتطلبه الظروف في بعض الأحيان، وفي خضم ذلك جاءني هذا الأثر الأدبي الساحر الرائع[٥]:

خمسون ألفا.. خمسون ألفا...، خمسون ألفا شتتوا، على تلول بلاد فارس..

جي اج كيو يتجول[٦]، يغري بذكاء هاميرو، يحسن بالأم جوليان،

يدفع بقطار لوبوك، أج كيو يتجول





"ادخلوا المخيم". رأى ذلك، هل بقي من سلاح؟

كلا، وكما يعلم الملتزمون بعضهم مشى يتخبط..

نحن لم نكن لنصدّق، نحن فقط ننقل إلى أمام...

أشكال، تكاليف، حسابات، ثُمانية شهريا في تضاعف تكعيبي...

نحن لم نكن لنسال ماذا؟

جي أج كيو يشتت..

***

حروب إلى الغرب منهم، وحروب إلى الجنوب منهم

معارك في كل الجبهات، وابل من الكلمات الملتهبة والتهديد،

عدم اهتمام بالقبائل التي قتلت، جلسوا بثبات وصمدوا، يحفرون في ساريميل

وأخيرًا رجعوا.. بخمسين ألفًا مشتتين.

***

الفخر للشجعان والعادلين، بقيت الزوجات هناك

يتنفسن الهواء الطلق، كأن لم يكن بينهم وبين أزواجهم

فراق للاختلاط بي... وبك.

هكذا فقط جي اج كيو، يجب أن يكون إنسانًا كذلك.

لماذا لا يعمل معسكرا واحدًا؟ كل كرند مجروحة...

***

بفضل الشجاع، والجسور، دافع الضرائب، شاب وعجوز،

وهو الذي لم يخبروه كذلك كم سيدفع بالمائة!

فكر بالمخيم الذي عملوه، فكر بالمطر النازل،



وبربطات الأرجل المصنوعة، فكر بما تبقى أن ندفعه.

لقد كونوا الجمع البري خمسين ألفا مشتتين.

***

سمعت التلفون يرن... "كابتن توماس، رجاء"،

"يتكلم"

"سكرتير المفوض الأهلي" ٢٠٢" يتكلم- سير ارنولد ولسن، يرغب في أن تأتي وتراه".

سوف اذهب إلى دائرة المفوض الأهلي، وهي غرفة كبيرة مفروشة جيدا ولكن اثاثها بسيط، مائدة للكتابة، كراسي قليلة، ومقعد طويل مما نستعمله للنوم قليلا في دوائرنا، وأعمدة لوضع الفايلات، كل ذلك حوله خلال اربع عشرة ساعة.

"خذ كرسيا واقرا هذه ياتوماس".

لقد كانت من الضابط السياسي لمنطقة المنتفك وقرات:

"تسلمت تقريرا مستعجلاً من مساعد الضابط السياسي[٧] للشطرة يخبرنا بان موقف العشائر يبدو غامضا وانهم قد بدأوا يشترون البنادق ويرفضون الإدلاء بالمعلومات عن عدد المجموعات العشائرية لغرض جمع الربع الحكومي، اذا توحدت عشائر خفاجة[٨] مع عشائر العبودة[٩] فان الموقف سيصبح صعبا جدا[١٠]، ان الصعوبة في الوصول إلى هذه المنطقة تتطلب شبكة من الطرق كما ان روح تمردها المشهور سيجعل من غير الممكن اخضاعها للسيطرة أو قهرها.

ان مساعد الضابط السياسي هناك قد ضعف موقفه"

صعّدت نظري:

قال المفوض الأهلي: "حسنا كيف ترى الموقف؟". "أنت خدمت هناك مدة أطول من أي شخص آخر كما اعلم".



فأجبته: "أود كثيرا لو ترسلني إلى هناك يا سيدي"

وفي اليوم التالي ذهبت إلى جي اج كيو لارى رئيس الأركان... وأخذت رسالة من المفوض الأهلي، فيما يلي نصها:

"لقد سبق أن طلبت سفينة حربية مدرعة لترسل إلى الكوت، وطلبت أن يكون فيها مكان ملائم لنقل الكابتن بي اس توماس الذي ارسله كمساعد ضابط سياسي للشطرة. يجب أن تتحرك من الكوت إلى الحي مع كتيبة مدفعية آلية بريطانية محمولة، تحت أمرة مساعد الضابط السياسي للشطرة لاحقا إلى حين وصوله إلى ذلك المكان، ومن ثم إلى شط الغراف، ثم إلى شط البدعة (الذي يكون بعيدا إلى درجة أن وصلناه آمنين).

الكابتن توماس يعرف المنطقة جيدا، وقد يكون من الضروري إرسال طائرتين إلى الشطرة حيث يوجد هناك مطار ارضي جيد، كما يجب أن تتجها إلى الناصرية وتُهيأ الطائرتان هناك لتتجها إلى الشطرة إذا ما طلب مساعد الضابط السياسي ذلك.

بعد أربع وعشرين ساعة أبرقت إلى الضابط السياسي في الناصرية، والذي يمثل مركز القيادة في منطقة المنتفك في جنوب الفرات. مائتان وخمسة عشر ميلا تحت الخط، تتواصل بخط سكة الحديد- التي كانت حلم الألمان ما قبل الحرب- ومأثرة الحرب من البريطانيين إلى بلاد النهرين.

من الناصرية، ذهبت على الحصان إلى الشطرة.

الحواشي

(١) "الميجر بولونيس": رقصة طقسية مبجلة، من ثلاثة إلى اربعة اوقات تؤدى في فترات قصيرة، من القرن السابع عشر إلى القرن التاسع عشر لافتتاح حفلات القاعة الراقصة والحفلات الملكية الرسمية. للاطلاع على تفاصيل اكثر راجع:

(ENCYCLOPAEDIA- BRITANNICA).

(٢) الكولونيل جير الد ايفيلين لجمن، قتله الشيخ ضاري المحمود في خان النقطة في احداث ثورة العشرين، في ١٢ اب ١٩٢٠، عن عمر يناهز الاربعين عاما. وكان وقتئذ يشغل منصب الحاكم السياسي للواء الدليم. "للمزيد من التفاصيل انظر: الشيخ ضاري قاتل الكولونيل لجمن: للعلوجي والحجية طبعة بغداد، ١٩٦٨".

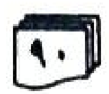
(٣) الميجرصون: الحاكم السياسي للواء السليمانية، عام ١٩١٩.

(٤) في ليلة ٦ رمضان ١٣٣٨ هـ/ ٢١ ايار ١٩٢٠ كانت الحفلة المعتادة مقامة في جامع الحيدر خانة فتكلم فيها كل من جميل رمزي وعبد الرحمن البناء وعبد الرحمن خضر ومصطفى الطرابلسي ومحمد مهدي البصير، ثم انبرى احد موظفي دائرة الاوقاف "عيسى عبد القادر" والقى قصيدة حماسية الهبت مشاعر السامعين فقبضت السلطة عليه في الحال، وابعدته إلى البصرة في صباح اليوم التالي. فعد الوطنيون هذا الابعاد تحديا لشعور الجمهور، فقرروا القيام بمظاهرات صاخبة احتجاجا على هذا التحدي بعد ان اغلق الناس حوانيتهم واتجهوا نحو مقرات التجمع" بحيث أصبح من العسير على الانكليز الخروج إلى اسواق بغداد في وضح النهار" وتقرر ندب خمسة عشر من المواطنين لمفاوضة الحكومة المحتلة في قضية البلاد الرئيسية.

انظر: "الحسني: ن. م: ص٨٩".

(٥) باذن من مجلة "الحقيقة" عدد ١٩/ كانون الثاني/ ١٩٢١ ننشر هذه القصيدة.

(٦) ثلاثة برتبة عميد يحملون هذه الاحرف التي تدل على اسمائهم (جي، اج، كيو) وهم برتبهم على التوالي: المندوب (جي، أج، كيو)، مدير الخدمات الطبية، ومدير السكك الحديدية.



(٧) هو الكابتن ميد وقد تعين فيها بتاريخ ٤/ ٤/ ١٩٢٠.

(٨) يقطن قسم منهم بين الشطرة والناصرية وقسم اخر على ضفاف نهر الفرات الجنوبية على بعد ثلاثة ارباع الساعة عن سوق الشيوخ ويقدر عدد افراد هذا القسم بحوالي مائتي نسمة.

(انظر: العشائر العراقية: ١٣٥).

(٩) عشيرة مهمة تؤلف جزءا من اتحاد عشائر المنتفك، لكنها تميل إلى الدعوة والمطالبة بالاستقلال الكامل، وهم عشيرة متوطنة يشتغل معظم افرادها بالزارعة. ويعرف رجالها بالقدرة على القتال وشدة الباس.

وهي تسكن الجهة الغربية من الشطرة على ذنائب الغراف. ويقدر عدد افرادها بـ ٣٥٠٠ نسمة، ويراسها خيون العبيد ومسكنه في "الصديفة" التي تقع إلى الشرق من الشطرة وفي "الحادي" على ربع ساعة من الشطرة. وفي الصديفة ما يقارب من ١٥٠ فلاحا يتبعونه في الراية.

انظر: "الطاهر: العشائر العراقية ١٦٤ - ١٦٦ عن تقرير سري بريطاني".

(١٠) صلات العبودية بخفاجة سيئة بسبب ما بينهما من عداء تقليدي قديم. وبما أن خفاجة والعبودة عشيرتان متقاربتان في السكن وتشكلان تجمعا عشائريا كبيرا لهذا كان الانكليز يخشون من توحدهما. (كامل الجبوري)

الفصل الثاني

الشطرة

الشطرة ثانيةً! الدعوة للخدمة مرة ثانية، لقد كان احتمالاً لطيفا، انني على معرفة شخصية بالكثير من الناس هناك، وبالتأكيد فان لي تاثيرا بينهم وانا أحبهم كاي انكليزي يحب القبائل عندما يعيش معهم ويتعرف عليهم. كانت سوق المدينة لكل القبائل المحيطة بها، والشطرة تقع في مكان ناء عند الطرق الرئيسية لبلاد ما بين النهرين وفي قلبها ا لواسع الفسيح، والحقول الخصبة للجزيرة، تقع بجانب قنال نهر الحي.

بيتي يحتل نقطة المركز في مقدمة النهر. كان بيتا على الطراز العربي، بنيت حوله فسحة كبيرة وشبابيك صغيرة غير ملائمة تطل على الفضاء وذلك للستر عند المسلمين ولتحاشي عيون المتطفلين.. والغرف ذات الارضية الترابية كانت دوائري وهي مفتوحة إلى الفسحة (الحوش)، كانت فسحة لطيفة ممتعة ومبلطة بحجر القرميد المنقوش عليه بالكتابات منذ اربعة الاف سنة مضت لجلالة الملك كوديا ملك لكش عاصمة السومريين القدماء التي لم يبق منها سوى خرائب قليلة قريبة من الساقية. خارج اول غرفة والتي كنتُ اعيش فيها، كانت هنالك شرفة تطل على معظم البيت، وهنالك سلالم تقود إلى السطح مباشرة. إلى هناك كنت اعود حيث ادخن الغليون بعد الظهر وأتأمل جدران المدينة فيما وراء النهر الصغير حيث حقول الحنطة الصفراء الواسعة والتي تمتد كبحر هادئ إلى حدود السماء المحيطة بالافق، ومن خلال السطح كانت تطل المنارة ذات اللون الفيروزي الازرق المخضر، والمليئة بالوان الكتابة والتي تعود إلى مسجد الجمعة، والتي في الامسيات الحارة كان المؤمنون يختارون السطح الذي بجانب القبة لصلاتهم خلفها، وامامها كانت تمتد بيوت المدينة، وخلال تلك البيوت كانت هنالك مدرسة الاطفال الابتدائية، والمستوصف، اللتان شيدتا للشطرة بفضل الادارة البريطانية. كانت هذه المؤسسات التقدمية مقدرة، وعليه فقد بدأت باعمال اخرى

مقابلها عندما صنعت كرة أرضية للمدرسة ودعوتها الأرض.. وبدا بعض الأباء نتيجة ذلك يشمون رائحة الكفر[1] وفي الجانب المقابل للجامع كانت هناك اصطبلاتي. إن أيام السيارات في منطقة كالشطرة تبدو كالصراع مع انبثاق الفجر. وتقدمت- على أية حال- في جولتي على ظهر الحصان وكان ذلك يبدو لي بإنه الطريق الصحيح لدراسة أحوال العرب ولغتهم، وفسح المجال لهم لمعرفتك بالإضافة إلى أن ذلك أصبح شيئا جميلا، فالمناطق المحيطة كانت خصبة ومثمرة ولكنها اقل من الحجم الطبيعي. كانت هناك طريقة جميلة للحراثة عند العرب.

انتعش السوق في تلك الأيام الموسمية الغنية، والتي شملت كل المدينة التي يشقها شارع أو شارعان يمتدان بموازاة النهر. انه يموج بالناس القادمين من الريف والذين كانوا يلبسون الملابس اللامعة ويتكلمون بصوت عال وبنبرات حنجرية، وكأنهم يتكلمون بألسنتهم وحناجرهم. الكثير منهم كانوا شبابا، من شباب القبائل المسلحين بالنسبة إلى حداثة سنهم، ويبدون بكسوتهم ونظامهم ككسوة ونظام الجيش. وفي السوق تقدم أنواع الأطعمة ذات المذاق العربي. الشطرة اليوم تصل حدود العالم الخارجي، كانت هنالك دكاكين صغيرة تتعامل بالحلي الرخيصة من الهند واليابان، مرايا ذات بريق وانعكاس داخلي وصور ملونة نصفية لنساء ذوات صدور ممتلئة في مداخل الدكاكين. كان هناك دكان حلاق، وهو في هذا المكان يقوم بمهمة المدلك والطبيب أيضاً، وعلى الأقل فهو صاحب مهنة ويقوم بالكثير من الأعمال الطبية كالحجامة الشعبية وعلاج أكثر الأمراض. معظم الدكاكين هناك كانت تتقايض وتتعامل بالحاجيات التي تحتاجها المنطقة. وتكون بالتبادل العيني. ففي الشتاء يأخذون الحنطة والشعير وفي الصيف يأخذون الأرز كانت هنالك أماكن للفاكهة كالبطيخ والرمان والبرتقال والتمر واليقطين وغيرها، إن أماكن البقالين أو دكاكينهم التي يتعذر اجتنابها كانت تحتوي على السكر والشاي والقهوة والجبن والتبغ والتوابل وأشباهها من الرمليات، وبالرغم من ذلك فقد كان أصحاب تلك الدكاكين مسرورين بوفرة

الحرير والحلي الصغيرة الرخيصة، وها هي أشعة الشمس التي تشرق على البيوت الصغيرة الفقيرة، فوق سطوح السوق، ولم أحاول أن اذهب إلى هناك حيث ذلك المكان الذي يجعل نساء القبائل مسحورات، وهناك سترى منظرهن وهن يسترن حتى وجوههن ومنتظرات من يشتري منهن أكوام الحطب التي يرفعنها على رؤوسهن الصغيرة لكي يحصلن كسبا مقابل ذلك، وإذا كان المبلغ نقدا فسوف تشتري التبغ لزوجها وتقفل راجعة.

مقاطعة الشطرة كانت منطقة يبلغ حجمها متوسط منطقة انكليزية، كانت المركز الجغرافي لمنطقة اتحاد عرب المنتفك الذين كانوا يسكنون في مناطق أواسط أسفل الفرات (الفرات الأوسط) شمال هذه المنطقة يقع منعرج نهر الحي أو (الغراف) وكانت قلعة سكر[٢] تقع متاخمة لمنطقة الكوت. إنها لم تعرف سابقا موطئ قدم للجنود الانكليز كالفرات ودجلة كانت مشهورة بتمردها وعصيانها لان فيها ظلا للأتراك كان منذ سنوات، إن لم يكونوا في الحقيقة قد سيطروا عليها تماما ولذلك بقيت منطقة المنتفك مسكنا للعرب، في الحين الذي بقيت بلاد ما بين النهرين لقرون مضت تحت السيطرة العثمانية.

هنا تسكن عائلة السعدون العربية النبيلة الأصل، وتعيش منذ حوالي ثلاثة قرون، وتحمل هذا اللقب المشرف في هذا المكان، ومن المحتمل أن تبقى مستمرة راضية بالعيش مع القبائل التي نصبتها وأعطتها البيعة، وتدفع لها الضرائب الاسمية، ولكن الأتراك استغلوا ذلك، وكذلك خروج القبائل المرتحلة الشاذة عن القاعدة، كل ذلك هيأ الفرصة للأتراك لكي يضعوا حدًا لما يسمى بالشذوذ أو الخروج عن القاعدة، كما ان ذلك بسط الموقف بالنسبة للحكومة المحلية الهندية المحاطة بالسلطة البريطانية في الهند في سنة ١٨٨١ طلبت القوة التركية (١٨٠٠٠) من القبائل إلى الجنوب من الكوت. لقد "تدللوا" على القبائل التي أصبحت مكانتهم بينهم مكروهة، فطلبوا منهم العودة إلى سادتهم عائلة السعدون ومفاوضتهم، وقد هرب أكثر هؤلاء إلى المحمرة حيث وجدوا

مأوى لهم عند أباء الشيوخ الحاليين سيئي الحظ، ولكن بعد ست سنين بدأ هؤلاء بالعودة إلى الأماكن التي هجروها، إلاّ أنهم ابعدوا عنها، فأقاموا في أماكن قريبة أو متاخمة لملكياتهم المفقودة. الأتراك سحبوا جيشهم بنجاح بعد أن ثبتوا حاكما على الشطرة، وبعد عشر سنين من الإدارة القوية واستتباب الأمن والتي نشأت نتيجة لدعوة التهدئة التي كان سادتهم يوحون بها، ولكن فترة الأمن هذه تبدوا أنها قد أوشكت على النهاية بعد أن ذوت تأثيرات الموقف ورجعت تشكيلاتهم السابقة وعادوا لانتهاك حرمات كانت سابقًا مأمونة الحركة- كما اعتقدوا- لم تكن ضمن السياسة الحكومية ولكنها كانت ميسرة من قبل الموظفين الكبار الذين كانت تدفع لهم الرشاوى أو يأخذونها قسرا. أساسًا في النسب القبلي كانت لهم حصة في هذه الأراضي، ونتيجة لما حدث تم تعويض عائلة السعدون لسيادتهم ويمنحهم الأتراك الألقاب بعض الأرض الواسعة التي تركها الفلاحون الهاربون من الخدمة، وكعنوان مقارب لتجربة حرية التملك في القانون الانكليزي الآن "حقوق المالك" "التأجير" كانت مصطلحات أجنبية وغريبة على عقل القبائل. لقد أصبح نظام إصلاح الأراضي المستأجرة الذي سيأتي والذي سمعت به القبائل ويجب أن لا تعجب، وللعشرين سنة القادمة كانت المنطقة تحت حالة سرمدية من عدم الراحة والاضطراب. ان المناداة بتوزيع الأراضي توزيعًا عادلاً وتسوية المبالغ السابقة كان مرتعًا خصبًا للمشاكل في الأقطار الزراعية، والتي أثارت الغضب بعدئذ في منطقة المنتفك.. وويل للحاكم الذي يتنازع على الأراضي وبالضبط مقابل بيتي عبر النهر (نقطة شؤوم) كانت هناك مقبرة صغيرة وكانت تحتوي بقايا ثلاثة أتراك كانوا يشغلون منصب قائم قام الحكومة وهم أسلافي هنا، ولم يجوزوا تكريما مرضيا ولذلك ماتوا في وظائفهم من غير الأسباب الطبيعية.

ثم جاءت الحرب العظمى، قبائل الشطرة اندفعت تحت تأثير المواعظ المتعصبة من قادتهم الدينيين تحت راية الجهاد ضد جيشنا الغازي، وبالتأكيد فإنهم في قتالهم لنا كانوا يحملون الوصية الدينية وهي أنهم إذا ماتوا فان أجسادهم سترفع إلى السماء حيث

المفاهيم والمسرات الاخروية. إذا كانت أو لم تكن تضليلا فان قتال العرب كان يزيد أكثر حينها تصبح القضية دينية. كان هناك متسع لنرى أن المنتفك كانت لها معدة صغيرة لتحمل المعركة الشعبية ولكن كان بها كسب كبير وفائدة. وبعد اتباعهم لنا وهجومنا المعاكس وانتحار قائد الأتراك، شعرت قبائل ا لشطرة بانسحاب القوات التركية، رفاقهم القدماء ولهذا عادوا من ذلك المكان إلى قراهم مع بنادقهم الحديثة وذخيرة حربية وافرة.

إن التقدم الرائع الذي أحرزه الجنرال "طاونزند" إلى المدائن جعلتهم يفدون إلى الناصرية لإعلام الحكومة البريطانية بولائهم. ولكن حالما رجعت الباخرة وانسحبنا إلى الكوت وبدا حصارنا لها نكثت هذه القبائل علاقاتها معنا وأعادوا علاقتهم مع الأتراك. لقد أصبحت الشطرة مركز القيادة بالنسبة لمأجوري الأتراك وكان ذلك بالرشاوى والأسلحة والذخيرة وحثوهم لتنهض قبائل الغراف ضد قواتنا في الغراف التي استقرت في الناصرية. سبعة آلاف عشائري تحت قيادة قائدهم المهيب الشيخ خيون العبيد والتحموا معنا تحت راية التعظيم في "البطنجة"، يدا بيد حاربوا ولم يسترح العرب حتى وقعت الكارثة وقتل ١٤٨ شخصا وفقد ٣٥. "البطنجة" كانت معركة غير ذات نهاية جيدة بالنسبة لنا وقد ارتنا همة ونشاط المقاتلين الشجعان من قبائل الشطرة. لقد هيأنا عملية هجومية ضدهم عند انخفاض الحرارة وبعد فترة زمنية. لمدة ثلاث سنوات صانوا أنفسهم وكانوا غير مزعجين. كانت قواتنا المحاصرة ومخازنها عرضة للسرقة ووصول هذه المسروقات إلى أعدائنا، وخلال هرج الناس حدثت بعض المعارك التي منحت المهربين فرصة الحركة والاستمرار في أعمالهم واستمرار الصراع. كان معهم هناك بعض من الأسلحة والذخيرة وقد غنموها من أيدي حلفائهم الأتراك.

ولكن مع سقوط بغداد عام ١٩١٨ عادوا مرة أخرى ورفضوا بصوت عال مشاركتهم في الحكومة المنتصرة، كل القواد جاءوا بعد ذلك وقالوا كلمتهم، إلا الشيخ



خيون العبيد فقد بقي عنيدا. لقد زار الشطرة بعد فترة قصيرة (في حزيران ١٩١٨) للمرة الأولى مجموعة من الضباط[٣]، وبعد ستة أشهر كنت أنا قد سافرت من سوق الشيوخ[٤] إلى الشطرة ضابطًا سياسيًا.

إن قائد القبائل في هذه الأحداث كان الشيخ خيون شيخ العبودة، وهو ذو شخصية قوية ومؤثرة وذو سلطة مطلقة، كان رجلا ذا ثروة خيالية وجبارا في المعارك، لقد سيطر على كل النهر لمدة خمسة عشر عاما، وكان كالشوكة في جسم الأتراك ومعنا أيضاً.

الحواشي

(١) اشارة إلى اعتقاد بعض الشيوخ من كبار السن- وهذه ظاهرة منتشرة يومذاك- بان من يقول بان اصل المطر من البخار، أو ان الارض كروية وغيرها فهو كافر.

(٢) قلعة سكر: ناحية تابعة لقضاء الرفاعي، محافظة ذي قار وقد سميت باسم الحاج سكر رئيس عشيرة آل حميد أيام السلطات العثمانية، سميت منذ عام ١٨٦٠ م تقريبا.
"العشائر العراقية ١٩٣، عن تقرير بريطاني سري".

(٣) وهم الكولونيل هاول، والكابتن جسيهان، وغوردن ولكر، والكابتن هول، وديكسون، وعلي المنصور، وصكبان العلي، وويس والكابتن ماكنتوش، وصالح الداغر- ال ابراهيم، ومحرر بن سعيد- بني سعيد، وعبد العالي الطربوشي- خفاجة. مع ٧٥ رجلا من السوارية- في صبيحة يوم ٢٤ من نيسان ١٩١٨ (يذكر توماس بانها في حزيران ١٩١٨) فوصلوا الشطرة في مساء اليوم نفسه، واستانفوا السفر في يوم ٢٦ بالسفن في نهر الشطرة حتى ملتقى البدعة ومنها إلى الغراف. امضى الفريق الليلة في ضيافة سيد حسن الواقعة داره على بعد عشرة اميال من الكرادي. والتقى بفريق قادم من الكوت على الباخرة يضم الكابتن ولسن الحاكم السياسي في الكوت، وكبرك مساعد الحاكم الساسي في الحي، التحق بهم الضابط هيسون من سوق الشيوخ على ظهر سفينة حتى البدعة... الخ.
انظر: "الطاهر: ن. م، ص١٨٥ عن تقرير بريطاني سري".

(٤) سوق الشيوخ كانت انذاك بليدة يقطنها من السكان اثنى عشر الف نسمة، تقع على ضفة الفرات اليمنى على بعد ٢٧ ميلا إلى الجنوب الشرقي من الناصرية وموقعها بين الناصرية والحمار. واليوم هي قضاء يتبع محافظة ذي قار. (كامل الجبوري)

الفصل الثالث

ميراث الاتراك

بانتظار اتفاقية السلام مع الاتراك، في الحرب أو ما بعد الحرب، كانت بلاد ما بين النهرين في منظور القانون الدولي ما تزال بلادا محتلة من قبل الاعداء، اما الادارة البريطانية هناك فقد كان من رايها ان لا بد من وجود عسكري مؤقت، العرف الدولي نص على ان يطبق قانون الجرائم الاخير على الجيوش المحتلة، ذلك القانون الذي اخذ من قانون العقوبات العثماني وكان نظاما متقدما ازاء قانون نابليون والذي تمرس به الضباط الانكليز وخولوا حق اصدار الأحكام بحق الاتراك المتواجدين في جنوب بلاد ما بين النهرين. ان القانون العسكري فرض علينا جمع الريع الحكومي والضرائب الاعتيادية من المواطنين حسبما وصلت اليه دوائر الضرائب العثمانية، وحسبما نجده في السجلات واضابير الضريبة والدخل.

ان الادارة التركية لبلاد ما بين النهرين في السنوات الاخيرة لم تصدق من قبل الكثير من المسؤولين الاوربيين، وهي بحق كذلك. لقد كانت فاسدة وعاجزة، فالآفات الزراعية دمرت الاراضي التي كانت تحت سيطرتها، لقد كانت الادارة والموظفون يعملون لصالحهم الشخصي بعيدا عن مصلحة البلاد، كما كانت اكبر الوظائف تباع بالمزاد العلني بانتظام، والآمر الكبير أو- المزايد- ياتي وحقيبته بيده، وكما يعرف كل انسان هناك بغير خجل ليقلد المناصب لمن يشاء من موظفيه ولمن يشاء ممن يدفع اكثر وفي وسط دائرته. ولكن لغرض ان يبقى ولا يستدعى. يجب ان ينظر إلى شهية قيادته العليا ويرسل لها الموجود في بلاد ما بين النهرين. قانون المكوس "التبوغ"، الاوقاف "للاماكن المقدسة"، الهبات الملكية. بالإضافة إلى الحصص الموسمية والسنوية لطبقة العثمانيين وعاداتهم وضرائب أخرى إلى فخامة الوالي.. والمثال على استقامة الموظفين الذين في القمة هو أن ينفذوا خلال درجات الوظائف الحكومية، والمستخدمين من العرب واليهود والأتراك الذين تعد صداقتهم منفذا للرشوة والفساد.



في مثل هذه الظروف لا يتوقع للادارة الدولية ان تنجح أو تزدهر. وللحقيقة فان- الامن العام- أو القانون لا يتوقع لـه ان يستمر خارج المدن، وكاتفاق أولي لغرض الادارة الواسعة مع شخص محترم وله قدرات واعتبارات واسناده حين العودة إلى المسائل والاقتراحات التجارية (يعتبر مهما).

في مثل هذه الحالة كانت المنتفك منطقة تسودها الفوضى أو منطقة بلا حكومة، ما عدا في مدينة أو مدينتين، اهلوها ليسوا من الذين يخضعون بسهولة، وها هم الفلاحون يقفزون في وسط الطريق كابناء الصحراء، لقد نشأوا من واحد من تلك الانفجارات البشرية التي بدات في عصر البابليين وعلى شكل دوري اصبحوا من العرب الاساسيين.

ما هو سبب الجفاف، القحط، الإكراه؟ أو ما هو سبب الحماس في التحول إلى الدين الجديد، لقد كان ابناء القبائل يملكون الذهنية الاصلية والعادات وقوانين واعراف صحرائهم القديمة، وهنا في جنوب بلاد ما بين النهرين، التي اعرفها كان العداء الدموي طبيعيا ومحترفا، جنس النساء كان يعد مخلوقا حقيرا، الحق بالنسبة لهم هو لمن يؤكد حقوقه بقوته، الثورة والعصيان كانت من الامراض المستوطنة المزمنة. لقد كانت قبائل المنتفك قوية جدا ومحاربين اشداء، ومن المشكوك فيه انهم يتركون الادارة العثمانية تثبت اقدامها. وقد تركوا يستمتعون بحياتهم دون ضرائب اكثر الاحيان ودون ان يعترضوا حياتهم. ان شيخ قبائل الغراف النائية كان قانونا في ذاته وخطرا يهدد جيرانه الفقراء. وكان هنالك بعض الموظفين الذين يحاولون جباية حصة السلطان ولكن دون فائدة، الا في حالة التاثير المباشر والفوري، ولسلامة التجارة والتجار فان مالك الارض أو الموظف لا وجود لهم، والضعيف يجب عليه ان ينظر - فقط - إلى التجارة، الا اذا انضوى تحت لواء بعض قادة اللصوص العاملين في خدمة الشيخ أو يعمل بكد وبجهد ويدفع الهدايا والمقتنيات اللطيفة. ملجؤه كان حصنا على ضفاف

الانهار أو في الاهوار أو المستنقعات وهناك تكون شجاعته حيث يحتفظ بقارب (بلم، مشحوف) لكي يركبه ويذهب للسلب والنهب.

لم يكن هناك قطار لاغراض تجارية بحتة، وللمحافظة على سلامة التجارة يجب على التاجر ان يدفع مالا للقبيلة التي يمر بقربها والا تعرضت حياته لخطر الموت. لقد تورط الاتراك في حروب البلقان، لم تكن لديهم القوة لاخضاع رؤوساء القبائل ولا السلطة لكي يربطوهم بالاوامر والقوانين. كانت فعالية الاتراك كما مترجمة في الرقعة هي ان مفهوم الحق مع المنتصر، وهذا بالطبع ما دفع المسؤولية عن الشيوخ واللصوص، وكانت هناك اخلاق عامة قائمة برغم كل ذلك. وهنا يكون البيع الاعتباطي لقطع الاراضي وسندات التمليك على حساب اراضي الفلاحين، وكانت هذه الطريقة المسماة (اصحاب طابو) ملاكين بموجب سندات التمليك في وقت كانت فيه "مجرد حكومة"، ولغرض تثبيت حقها القانوني والشرعي في البقاء كانت تغصب الحق من جانب لتعطيه إلى جانب اخر أو من كليهما، وكانت هنالك محاكم تركية تحكم حسب المذهب السني مزدرية حقيقية هامة، تلكم هي وجود مائة في المائة في جنوب بغداد عربا، وتسعين في المائة منهم شيعة. ان عرب المدينة في بغداد وشمالها يرون الاشياء بمنظار مختلف، كان احدهم سنيا ان لم يكن تركيا، وبأي حق، فكل شخص مع الاتراك سوف يتمتع بامتيازات المذهب السني، حصل على التعليم التركي وعد خدمة العثمانيين مهنة.

ولتقويم الوضع الداخلي والموقف في ايام الادارة البريطانية يجب ان يكون واضحا ان هذه الميزة هي لعموم بلاد ما بين النهرين بين رجل المدينة ورجل الريف أو القبيلة. وكان هناك تقسيم جغرافي واجتماعي ومذهبي.

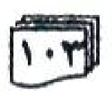
رجل المدينة من طبقة الموظفين كان مجندا سائدا من بغداد أو المدن في شمالها، لقد عد رجل القبيلة الثائر أو الذي لا يدفع الضرائب عدوا للحكومة، وشارك التجار في

نظرتهم، وكذلك مالكي الاراضي تبعوا رجل المدينة في نظرتهم بان القبائل غير مدركة وبربرية وذات ذهنية حادة في السلب والنهب.

ان القبائل في العراق، جنوب بغداد، وهم غالبا على وجه الحصر شيعة في المذهب، وقد عدو الموظفين وملاك الاراضي كاعداء طبعيين لحريتهم، وان التاجر الذي يمر عليهم كانه حمل سمين بعثه الله اليهم لكي يكتسوا بصوفه.

الشيعة والسنة لم يكونوا على خلافات مستندة إلى الدراسة، وانما كان تعصبا حادا في هذه المنطقة ينبع من العداء. والعلاقة بين المتشيعين تثار بواسطة العناصر المثقفة واصحاب المهن، ولاسباب اقتصادية وبواسطة ما ورثوه عن الاتراك الذين يتبعون المذهب السني، كانت المسالة مشابهة للعلاقة بين رجال الكنيسة الانكليكانية والخارجين عنها في عهد ستيوارت.

الشيعة اكثر المعارضين صلابة في الاسلام، ومتعصبوهم في بلاد ما بين النهرين هم من رجال القبائل ويكون ذلك بطبيعة تمسكهم بالعقيدة وبالامية والجهل الشائع بينهم، وقد جاءوا لياخذوا الخطوط العامة لسياستهم من الهيئات الدينية، ويكون ذلك عندما ياتون إلى العتبات المقدسة وترى تلك الايادي القوية الخشنة البعيدة عن العاطفة كيف توضع مترعة وخفيضة، ورجل الهيئة الدينية الكبير يسمى "المجتهد" وهو يشبه البابا أو كبير الكهنة، عندما يتكلم. ان المجتهدين هؤلاء أيضاً خاضعون للاسلام. ان الاساقفة والمجتهدين والعلماء والقساوسة (رجال الدين) هم سكنة الجنة بالنسبة لرجل القبيلة الساكن في الاهوار وهو خاضع لحكمهم كبقية الرجال. ان قوة المجتهدين تكمن في الاعتبارات اللاهوتية وتفسير قوانين الدين وتشريعاته وتلك التفسيرات الروحية تتغير من وقت لاخر. ان هذه التفسيرات (الاجتهادات) تقبل من بقية المذاهب الكبيرة في الاسلام وهم السنة "التقليديون" اصحاب المذاهب الاربعة "التقليدية" وهي الشافعي، الحنبلي، المالكي، الحنفي، وهذه المذاهب الكبيرة موجودة منذ العصور الاسلامية القديمة وهي ثابتة الأحكام وغير قابلة التغيير. ان اماكن



الشيعة المقدسة في النجف وكربلاء تعد فاتيكان العراق وهي تمثل لرجال القبيلة مفاتيح الجنة والنار، وهنا تعيش مجموعات من الفرس يعكفون على دراسة الكتب المقدسة التي غالبا ما تكون مفسرة، كتب، كتبت في النص العربي المقدس (القرآن) لغة الجنة الأم، اللغة التي من خلالها أوحى بها الله إلى الإنسان!

عندما يذهب رجل القبيلة للزيارة كما يفعل بشكل دوري إلى كربلاء والنجف والكاظمية وسامراء ليتقي ويجدد اخلاصه في اضرحة القديسين يضع نفسه تحت قيادة احد اولئك الذين يخدمون الاضرحة ويصبح كريما، سخي العطاء تحت تاثير الوازع الديني، ويصبح غير ذلك المخلوق ذي الدور الحديدي، خاضعا ومطيعا وخاشعا.

وحين الرجوع إلى المعتقد العام للسنة والشيعة فهناك "لا اله الا الله محمد رسول الله.." ولكن النقطة اللاهوتية الرئيسية للخلاف بين الاثنين بعيدة عن تفسير القانون الالهي، دائما ترجع إلى مايلي: هل قضية الخلافة تعود للنبي صلى الله عليه وسلم، مع السنة: الخلافة ما زالت حية، مع الشيعة انها قضية ميتة أو على الاقل معلقة. السنة يقولون باختيار الخليفة والشاغل لهذه الوظيفة كان رجلا اعتياديا من المسلمين. قويا ليومه، هذه الوظيفة صارت لقرون عديدة، لهذا السبب كان لسلاطين العثمانيين، هذا الموقف يعد بدعة بالنسبة للشيعة. ان الخلافة تؤخذ عن طريق الوراثة*، الخلافة محدودة لاثني عشر شخصا يتسلمون هذه الوظيفة يدعون "الائمة". علي كان اولهم واعظمهم، وهو حجر الزاوية لهذا الصراع الضخم وعظامه مع اولئك الائمة الاوائل

* جوهر الخلاف بين السنة والشيعة في قضية الخلافة هي ان السنة يقولون بنظرية الشورى في اختيار الخليفة بينما يرى الشيعة طبقا لنظريتهم ان الامامة منصب الهي والامام هو المعين بالنص الالهي لقوله تعالى لنبيه إبراهيم: اني جاعلك للناس اماما- (١٢٤) سورة البقرة والامام المقصود عند الشيعة هو مرجع للناس في امور دنياهم واخرتهم والقيادة السياسية هي احدى مهمات الامام إلى جانب تطبيق احكام الله وليس كما يقول المؤلف ان الخلافة عند الشيعة تؤخذ عن طريق الوراثة (المترجم).



ترقد في العتبات المقدسة، من العراق، الإمام الثاني عشر والأخير هو المهدي المنتظر، اختفى وهو صبي في كهف، ولا يزال يعيش، وقد اختفى عن الأعين، وسيأتي ثانية ليقيم الحرب ضد الظلم والجور، والثورة متكررة في أقطار الشيعة، بسبب الظهور المدعى فوق المشهد. السنة يرفضون كلمة "إمام" ولذلك يعدون في نظر الشيعة كفرة.

الإمامة تعد بمقام الحكومة الدينية، وعلى وجه الحصر ذات قدسية إزاء القوى الدنيوية. وهذه المسالة تتعدى في بعض الأحيان نظرتها، حيث أن القبائل في جنوب بغداد وهم من الشيعة كانوا مخلصين جدا لهم، ويقومون بثورات مسلحة لأسباب وغايات هي غير اعتبارات الحاكم السني والحكومة البيروقراطية العربية.

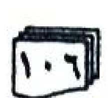
الفصل الرابع

طرق البريطانيين

ان عمل سياسي المنقطة هو ان يحكم، وكانت اهداف الحكومة هي تهدئة القبائل ووضع القانون واصدار الاوامر بدلا من الفوضى والتشويش والارتباك الكامل الذي ساد من قبل، سياسي المقاطعة يجب ان يقيم العدل ويجمع الدخل الحكومي (الريع الحكومي) ليشتري التجهيزات للجيش، يقيم مجلس البلدية ويتعاون مع بقية الاقسام كالتربية والري والزراعة والاعمال العامة اذا نفدت هذه الاعمال وفي أي مكان. بعيدا عن الاعتبارات الاخلاقية، فان الضرورة لوضع القانون والاوامر بين القبائل لا تعرف القانون وليس لديها قانون. كان من مهمة الجيش تامين خطوط المواصلات (مواصلاتنا)، والمحافظة على التجهيزات المحلية، الملاحة، وحالة العالم اللاحقة للهدنة، والتي جعلت تجهيزات وبضائع بلدان ما وراء البحار محرمة، وجعلت أيضاً من المرغوب فيه ان تطعم الجنود في الميادين من المنابع المحلية كلما امكن توفيرها، والاراضي المنعزلة أو المزروعة بغير نظام تكون مثمرة وخصبة.

وكما لاحظت فالشطرة لم تر مثل فرقة الجنود البريطانيين- كما اعتقد- ومن خلال الهيبة وانعكاس صدى انتصاراتنا التي زحزحت الاتراك من الاراضي بالاضافة إلى اسمنا الجيد وسمعتنا الطيبة.

لقد كنت الانكليزي الوحيد في المقاطعة بين حوالي ١٣٠.٠٠٠ الف نسمة. اقرب نقطة لزملائي كانت في الناصرية على بعد ٢٤ ميلا إلى الجنوب، "الضابط الاعلى" وقلعة سكر تبعد ٣٦ ميلا إلى الشمال. لقد استنبطت هذه النتائج من خلال الجولات التي كنت أقوم بها لمدة أكثر من شهر، تعلم التحدث بالعربية وتعلم كيفية التفكير وكذلك يجب أن يكون باللهجة المحلية، بالطبع كان ذلك مسألة إجبارية.



وللقوة، يجب ان نعتمد على العسكريين المحليين والذين منهم معي "الشبانة"[1] كما ندعوهم، كان واحدا من جنود الله. رجل القبيلة نحن جندناه محليا وقد جاء ببندقيته وحصانه معه، البسناه البزة وستر رأسه باللباس المحلي "العقال والكوفية" كان واجبه "استعد واسترح" وبعض الأعمال مثل: الحراسة ومراسل وسجان ومهمة رجل الشرطة، والجندي، وكان يقوم بكل هذه الأعمال بشكل جيد. كان شجاعا وجريئا بالاضافة إلى ذلك كان صديقا عظيما، ولهذا على المرء ان يتعلم تفادي استعماله- ما امكن- في منطقته. فهنالك في طبيعة الأشياء له عداوات قديمة لم تنته بعد، ومن غير المستحسن تعرضه لاغراءات الوظيفة واستخدام مركزه للتورط مع اعدائه الشخصيين. ولكن عشرين ميلا من قريته تدعم قوته وتزيدها. يقفزون من بين رجال القبائل على ضفاف الانهار، وسبّاقٌ غالبا، وليست لديه فكرة عن السياسة ولكنه بارع وهائل في ولائه الشخصي.

"الشبانة" تنظيم جاء مع الوقت لتطوير الرجل البدائي إلى رجل ميلشيا ثم إلى مجند عربي بالقابلية العظيمة نفسها خلال مشاكل العصيان المسلح، والى جانب القوة الصغيرة من المجندين المحليين كانت الإدارة مخولة بإسناد العمليات الحربية الجوية في حالة أي عصيان خطر. لكن لم أجد أي ضرورة بين قبائل المتفك لأطلب طائرات لاغراض العقاب والقصاص. المعاقبة من وقت لاخر كانت ضرورية بالطبع، وقد كنت مولعا باخذ القصاص بواسطة الشبانة، بتدمير أو هدم بروج "بني سعيد" الاثني عشر، وعمل كهذا يبدو لغير مستحقيه بعد وقوفهم بأمري عند مقدم المشاكل (يعتبر ضروريا).

ان توقعاتي حول رجل القبيلة قادتني إلى انه سهل الانقياد ومسؤول عندما يعرف "لماذا" وأين تستقر الاشياء؟ واذا استمع بصبر واناة غالبا ما يكون غير محتمل لطول وكثرة شكاويه ومظالمه. لقد كانت تمريناتي لغرض صرف اكثر من شهر ونصف الشهر في التجول بين القبائل لاعرفهم شخصيا، وكنت في العادة اصطحب معي اربعة من

الشيوخ الذين اعول عليهم في التغييرات، وغالبا ما اجلبهم من اقسام المقاطعة الاخرى. كان هؤلاء يعتبرون وسيطا عاطفيا بفم وآذان. إن عرب الغراف المتطرفين وذوي الملابس الصوفية كانوا يستجيبون للكلام الشخصي.

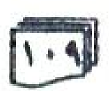
الشطرة اعطيت درجة ادارية واسعة من الاتراك لعدة سنوات، ولكن حتى عندما كانوا يقيمون علاقات جيدة مع القبائل فهم مثل القاضي السني الذي يحكم بقانون الشيعة- عمل بغير معرفة- اولا يعلمون انه يعارض الشيعة. وبما ان معظم القبائل من الشيعة فلم يكن من العجب ان تقاطع محاكم الحكومة. وتوجد عند كل القبائل العربية قوانين وانظمة غير مكتوبة وجدت عمليا في التراث الشعبي، وكان قاضي القبيلة هو الشيخ أو "السيد" المحترم. والنتيجة تكون مقنعة للجميع ويكون الجميع في توافق تام مع التصور المحلي للقضاء، أو يقضون بالعقوبة من خلال عادات وتقاليد سحيقة في القدم. لقد عرفنا هذا النظام وعملنا نحن نظامنا الخاص في النزاعات القبيلة والصراعات، ولهذا فان الشخص الذي ياتي بحكايات لدائرة ما، يقول ليس هناك حكم الا في "حضرة الحاكم" نفسه. مثل هذه العرائض تكون تافهة عادة وغير ثابتة، هكذا، ظلم، طغيان قليل، واستمتاع شخصي، كانت كلها غير غائبة عن مالك النهر والذي لا يحمل قوة مارد خرافي فقط، ولكنه يستعملها أيضاً في دورانه اذا اراد ان يسود. وفي كل الحالات تكون الاجراءات بان امسكهم في قاعة القبيلة (المضيف) وادعوهم للاجتماع واحكم بها، وهنا اما اكون رئيسا للمحكمة أو احاول اخفاء نفسي حسب متطلبات القضية واخيرا اصادق على القرار.

تلكم كانت الطريقة المستحسنة في اشاعة العدل من القبائل والتي نالت الاستحسان والقناعة، ولهذا فان القضايا العارضة تأتي دائما وباعتبارات بشرية أو في ظروف عدلية غامضة أو اكرهنا على التضارب فيها كهذه الحادثة التي وقعت في سوق الشيوخ: كان هناك شاب عمره سبعة عشر عاما، جلبوه امامنا متهما بجريمة قتل امه، لم ينكر الجريمة وقد فسرها على انها عين الحكمة، لقد جاءت بطفل، وزوجها- والد

الشاب القاتل- كان قد مات منذ فترة طويلة، ان عار الطفل غير الشرعي الذي سيجلبه عليه لا يحتمل، ما لم يكفره أو يغسله. انه يحب والدته، وقد فكر بالصفح عنها، ولهذا شاور بعض النساء العجائز العاقلات من القبيلة لغرض اجهاض امه، فاذا نجحت العملية فسوف يعفو عن حياة امه. ولكن من المسائل التي ما زالت باقية هو شيء واحد فقط يؤكد اصالة وجودة اسمه ويبقيه غير ملوث ويمكنه من الجلوس مع الاشراف- مرفوع الراس- لشرب فنجان القهوة في المضيف، من هذه الخطوة لم ينكمش أو يتردد. والخنجر الملطخ بالدم طعن به صدر والدته وهي نائمة. لقد حكمت محكمة القبيلة التي نظرت في قضية القتل بالموضوع في ساعة أو ما يقارب. لقد وجدوا ان المجرم قام بعمل مشروع وحكموا بتبرئته. ان الصعوبة تكمن في اقتناع ضمير القبيلة بعدالة حكم أو عقاب الحكومة التي حددت له العقوبة مباشرة. بعد ستة اشهر حصل على حريته ثانية. لقد وجد بانه مزارع ممتاز واستغلت مهارته لحس.. بيت سياسي في سوق الشيوخ في المكان الذي سكنت فيه وفي الحديقة التي ما تزال مزهرة كذكرى له.

قانون الإجرام طبق على غير القبليين الذين يعيشون في المدينة، لقد انتقلت إلى غرفة المحكمة التركية في الشطرة التي تشبه السراي الضخم، وان قانون العقوبات العثماني لنظام الحكم الأخير قد أبطل. فقد استعملناه مؤقتا لقضايا بسيطة وعادية والتي تطورت في بلوجستان في ظروف مشابهة لظروفنا. وخلال إقامتي المؤقتة في الشطرة كانت محكمتي من نوع قاضي درجة ثانية برفع الحكم بالسجن إلى ستة أشهر، ولكن مع رفع الأحكام بصلاحية الحكم بالسجن إلى سنتين كحد أعلى أصبحت كقاض من الدرجة الأولى، ونحن نسترشد بقضايانا بالعربية التي تشكل القناعات، أما في أيام الأتراك فكانت الأحكام والمناقشات كلها باللغة التركية.

إن الإصلاحات التي أعطت اعتبارا اقل من القناعة كانت مؤسسة جمع الدخل الحكومي. جمع الضرائب كان ضروريا لعدة أسباب، كانت المسالة قانونية وستقدم عملا ملموسا يلاحظ من خلاله خضوع القبائل الذي سيساعد بدوره في إطعام جنودنا،



وسيقلل من عبء جلب التجهيزات من وراء البحار، وأخيرًا ستحول مشاريع تحسين الوضع الاجتماعي إلى واقع حقيقي، إن نظامنا المالي بالطبع له شكل النظام التركي نظريا، والذي تعود عليه الناس. وبتأثيرنا كان منتظما في حالة الحوادث، وأكثر فعالية في الطريقة بقدر المستطاع لأنه كالمسن الحاد المتغضن الوجه، الأتراك حاولوا أن يكونوا نظاما خليطا في الحين الذي كانت الضريبة المستحصلة تزيد وتتوسع الحصة في كل منطقة حسب الغايات، يخضعون أو يقاومون. وباختصار كانت قضية انتهاز فرصة وتجارة في أهدافها وغاياتها، ولذلك فهي تزيد في مناطق وتقل في أخرى، وفي بعض المناطق يعودون مخذولين دون تحصيل أية ضرائب بالمرة. والشطرة في السنين الأخيرة تصنف مع الفئة الأخيرة، ولذلك بدت طريقتنا في سياسة جمع الضرائب كثورة فعلا.

ولكن مع عملية مشاريع البناء كانت أسهل لنا لتحديد نزاهة أهدافنا أكثر مما كان الأتراك يعملون. والعوائد في أيام ما قبل الحرب توضع في خزانات السلاطين الأتراك الحديدية، ولا تترك موارد مالية أو اعتمادات لغرض تحسين الأوضاع المحلية، لان البلد كان مستنزفا. عملنا كان يختلف تماما، فنحن نأخذ بيد ونعطي باليد الأخرى، فمشاريع العلم، وخطوط الإنتاج محسوبة لخير البلد، دوائر بريد وبرق عمومية، خدمات هاتف، طرق والمدرسة والمستوصف كان ثمرة جهدنا في الشطرة لهذا التاريخ وأعمال غيرها مهمة كمشاريع الري التي كانت تحت التنفيذ.

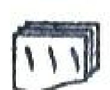
الطبيعة قد تكون غير كافية في تنظيم الشطرة، دون أن يتدخل الإنسان، كان محكوما عليها بالدمار نتيجة ارتفاع الطمي في نهرها. المدينة تقع تحت مستوى تفرعات نهر الغراف، إنها تضطجع - للأسف - في الملتقى أو التشعب الخاطئ لحرف "Y" ونظرا لازدواجيته فنهر البدعة اخذ حجم الماء فيه بالتناقص سنة بعد اخرى، من حيث معطياته لنشط الشطرة. وان مشروع سد البدعة يجب ان يمتص كما هو معروف للسكان المحليين اكثر موارد الشطرة المالية، ونحن نحاول ان نبذل جهودنا مع الضغط على بعض السكان، وكانت الفكرة حقيقة من وحينا، واذا كان العربي "حواسه في عينيه" -



عينه ميزانه- كما يقال فان النتيجة النهائية أو التقدير للمشروع سوف لن يجبرهم فقط للاعتقاد بقوة تصميمنا وعزيمتنا. إلى الآن فان عقل رجل القبيلة المتوسط المتفرد في تلك البقعة النائية عاجز عن تجاوز متعته وحاضره. وبالنسبة له كان شيئا مزعجا ان ندعوه للعمل بالرغم من أننا ندفع له أجرًا. وليس العمل هو الذي يضجره، ولكن لأن العمل يستلزم غيابه عن القرية، البعد ولو لثلاثة ايام في كل مرة، ولكنه لا يصبر حتى يعود من اجل سواد عيون زوجته.

العمل الإجباري ضروري لمثل هذه المشاريع التطويرية فضلا عن انه تشذيب وأبعاد للميزات الرديئة لمخلفات الإدارة التركية مثل الكسل، الانكماش، التجمد والحماقة والأسوأ من ذلك الظلم الذي تقود له هذه المميزات، بالإضافة إلى ما ستولده من توتر عند السلطة المحلية. والسلطة من أي نوع كانت ستقف غير مرتاحة من رجال القبائل في بلاد ما بين النهرين. انه لا يكفي أن يصبح غنيا بشكل غير طبيعي نتيجة مصاحبته لنا، ونتيجة لتلك الحالة سيصبح حاد الانفعال ومستبدا حين يكلف بدفع الدخل الحكومي وحصة الدولة بالرغم من أن النسبة المئوية لحصة الحكومة هي قانونية على أمواله الجديدة والثروة التي لم يحلم بها أثرياء الحروب ويهدد بالضرب وبأشياء خرافية.

هذا التوتر للسلطة كان بغيضا بطريقة أخرى. لقد جلب السأم لهذه المنطقة التي تعودت على الفوضى والاضطراب المتواصل، وهذا السلام والاستقرار لا يلائم العقل الحربي. الم يكن أسلافنا يتبعون عكس هذه السياسة ويحرضون شيخا ضد شيخ ويشجعونهم على قتال بعضهم؟ أين كان احترامنا للتقاليد؟ حتى الآن لم تحن الفرصة لتطبيق القوانين الخارجية الحتمية التغيير للوضع الإقطاعي العدائي البالي. لقد طوقت تلك الأماكن العصية لكل أولئك الشيوخ الأقوياء الذين استمتعوا منذ وقت قريب بتحررهم من الأغلال. لقد انتهت أيام الجريمة وأيام السلب والنهب وأيام القلق والتزعزع. ماذا سيفعل رئيس العصابة بيمينه القوية وشجاعته وبسالته، لم يكن من المتوقع ان يرحب بتقليل قيمته في عيون مجتمعه. لهذا لم يكن كما يفترض بممثل العشيرة



الشعبي. وبالعكس فقد كان في بعض الأحيان مكروهـا، وفي أحيان أخرى يسبب الأذى والضرر لمنطقته[٢].

لقد كانت الأمور هكذا خلال خدمتي في الفترة الأولى بالشطرة، والرجل الوحيد الذي وجدت سيفي يتقاطع مع سيفه هو الشيخ خيون العبيد، كان سلوكه صامتا ومقطب الجبين، وقلما يرى في المناسبات، تبدو عليه سمات الكبر والغطرسة، إن اتهام الأتراك وعائلة السعدون له كما يبدو صحيحا، ولكنه غير موثوق بصحته.



الهواشي

(١) الشبانة: وهم المجندون من العرب الذين تطوعوا للخدمة في دوائر السلطات التركية للقيام بأعمال الحراسة والخدمة والتجسس والإشراف على السجن وواجبات الشرطة والجنود. تحت إشراف الإداري العثماني وقد أطلق عليهم فيما بعد بـ"الليفي" أيام الاحتلال البريطاني.

(٢) طاقية: كما يفهم من رجال القبائل بأنه الشخص غير المرغوب فيه كصديق مفيد وممارساته الخاطئة أكثر وضوحا مما ينفع الهدف الأخلاقي. انه بصراحة شديدة غير مؤدب كما انه يعتقد بان ليس هناك خطيئة في الكذب على الكافر.

الفصل الخامس

لعلعات رصاص الثورة

أعدت قراءة البرقيات التي كانت بيدي:

- "إلى طيران بغداد"

الطائرات ستحط في السماوة مدة يومين بعد أن يبرق الضابط السياسي للديوانية بوجوب إيقافه القصف على منطقة الصفران[1]. من المحتمل أن يكون إرسالها إلى الناصرية ضروريا إذا طلب من قبل مساعد الضابط السياسي للشطرة.

من شبكة مواصلات البصرة

- "إلى الضابط السياسي"

جي. اج. كيو.. نعلم بان الباخرة المدرعة "كرين فلاي" في طريقها إلى الكوت. لمعلوماتك ومعلومات توماس "كرين فلاي" وصلت الساعة ١١٤٠ وطاقمها يحمل خمسة بنادق أو. ار. اس وتسعة بي. أو. ار. اس أرسلنا اليوم بنادق اوتوماتيكية.

من المندوب الأهلي

لقد ادركت خطة اعتقال الشيخ خيون وإرساله إلى الناصرية أو إلى الكوت لغرض نفيه إلى خارج القطر. ولكن المثل المشهور في إمساك الطير بقطع ذيله، هنا وفي هذا المكان مسلم بصحته وهي ما زالت تمتلك منطقها الهائل القديم.

وعندما طلع الفجر لم يكن هناك نقاش في قضية الاعتقال، كان هنالك الكثير من المحتجزين لهذا الغرض.

مرت الأيام وضاعت الفرص، لقد استقبلت ودعوت الأصدقاء القدامى، وقد كنت اصعد كل يوم مفتشا عن صيدي المفضل وأتجول في كل المناطق المجاورة لأرى الحصاد والناس. كان من السهل جدًا أن تعيد وتجدد علاقات المعرفة معهم، وترى



حياتهم وتهنئتهم تفيض بالمجاملات المعتادة. هنا في الشطرة كان الجميع جيدون، وهذا ما يبدو على الأقل. ولكن الموقف في الأقسام المجاورة إلى الغرب كان مختلفا جدا، وفي الحقيقة كان الخطر يتدفق إلى الشطرة يوميا. الآن أيضاً وصلت أخبار عن الهياج في بغداد. ولكن التأثير كان قليلاً. إن الصلة بين الشطرة وبغداد جديرة بالإهمال والصلة بين الشطرة والديوانية هي التي يجب أن يحسب لها الحساب.

لقد عزمت على أن أقوم بجولة لأتأكد من المشاعر في المنطقة وللبحث عن أصدقائي القدامى الذين كانوا يشكلون قوة في المنطقة، إن ارتفاع المياه مكن زورقي البخاري من الوصول إلى باب الدار الأمامية، وبالمناسبة، فان هذا الفصل مكنني من السفر بالزورق البخاري فقط في الأراضي التي تقع في الشرق من قسمي إلى نهر البدعة الذي يشكل في بعض الأوقات من السنة شبكة من القنوات الضيقة التي تكون تحت سيطرة أي شخص لاختراقها بسهولة. وفي هذا الوقت تتدفق المياه مكونة سلسلة من الأهوار التي تغمر الأراضي المحيطة لفترة من الزمن، وأخيرًا عندما يضمحل الفيضان ستكون الأراضي الطينية حقولا زراعية، ولكنني كنت اخترقها، وفيما وراء هذه الأهوار والتي بحدوثها تؤشر خط دجلة كان اكتساح العرب في القرن السابع لانتزاع الاراضي من الفرس إلى اربع سهول بني سعيد(٢). هذا كان من ابعد الاماكن في منطقتي، والشعور المحلي هنا سيمنحني بعض الرؤية لاكتشاف طريق الريح التي كانت تهب. لقد صممت على التفتيش عن علاقة قديمة، انه الشيخ نايف.

كان يوم ١٢ من تموز عندما حللت في الدواية وغيرت الزورق بحصان، رحلت في حر الظهيرة إلى خيام الشيخ، لقد ارتكب جريمة في عهد سلفي - من التبعات التي ورثتها ويجب ان اضع لها حلا والتي تعد في هذا الوقت كانها قضية سويت وانتهت - كانت حالة عشائرية طبيعية، فابن اخ له قتل ابن أخ اخر له ليستولي على اراضي الاخر، رتبت دية الدم الاعتيادي بـ ٥٠٠ روبية، كانت حالة مقبولة عند القبائل وقد دعوت نايف ليصطحبني عند عوتي إلى الشطرة لنناقش قضايا المنطقة، لقد خاف من هذه الفكرة



ولكن عند تأكيدي له بأنني لم تكن لدي نية للقبض عليه أو سجنه، وافق، ورحلنا، وعندما كنا نسير بتمهل في الأراضي الواسعة والحقول إلى الدواية رصدت واحدا وعشرين رجلا مسلحا في موكب غير رسمي من رجال قبيلة نايف في حدود ميل تقريبا يسيرون بأسلوب يشك فيه في اتجاه مواز لاتجاهنا. كانوا غير سعيدين عندما رأوني أغير اتجاهي بسرعة حول اتجاههم ومشيت خلال مؤخرتهم إلى بعض الخيام القريبة التي قررت المبيت فيها الليلة. لم يكن هنالك من شك بان الشيخ سينفصل عني وليس هناك من شك في إنقاذه. وفي الحقيقة لم يكن هناك تذمر أو دمدمة لأي شيء يؤخر الأمور، ولكن اليوم ليس باليوم الذي تستغل فيه الفرصة، هنالك أسباب للإثارة لابد من تجنبها.

الشيخ نايف جاء متأخرًا في تلك الليلة ليراني في مضيفي المضاء بشمعة. كان نادما وغير مرتاح لأعمال رجال قبيلته اللامسؤولة، كما تكلم عن الرجل القتيل. لقد استعملت الحكمة أكثر من الشجاعة وأخبرته بأنني لن أخذه إلى الشطرة في صباح اليوم التالي إذا كان الموقف المحلي يقلقه ولكنني لن اسمح بان أرى تحدي بنود القانون أمام عيني، وأمرت بمصادرة الإحدى وعشرين بندقية. إحدى عشرة بندقية سلمت في الحال، وبعد أسبوع جاءني الشيخ إلى الشطرة جالبا البنادق العشر الباقية معه. لقد نجحت الخدعة. ثمانون ميلا إلى الغرب مني كان العصيان المسلح قد بدأته القبائل في السماوة عندما كان السياسي لا يجرؤ على الخروج من حيزه المحدود، وخط سكة الحديد القريبة منه اجتثت، ومدير المحطة قتل. أخبار مثل هذه الأحداث لم تصل رجال القبائل الذين نجحت في مصادرة بنادقهم الجميلة، ولكن المشاكل كانت في الجو على أية حال وسوف تقوم، في حالة غياب الجنود الذين يسندونني.. فهل أريهم الضعف أم ادعهم يفكرون بان المعركة تضع ذيلها بين رجليها؟

إن أخبار العصيان المسلح في المناطق المجاورة، والمشاكل في بغداد وصلت متأخرة إلى الشطرة ولكنها الآن تروج في السوق. وبالرغم من ذلك فقد جاء شيوخ القبائل لرؤيتي كما كانوا أصدقاء سابقا، وأسلوب العمل كان متناسقا بما فيه الكفاية وقد سألوني:



"لماذا لا تعتقل مثيري الفتن؟ انهم قليلون واذا تركتهم سوف يتكاثرون. لا تخف فانت الذي هزمت الاتراك".

ومهما تكن اسباب الاحداث فهناك شيئان اثنان كانا واضحين في الموقف المحلي:

١. ان روح الوطنية لم تدم طويلا.

٢. لم يكن هنالك تحالف أو تقارب بين هؤلاء الذين هنا والقبائل المجاورة في الفرات الاوسط لغرض اسقاط الحكومة.

الموقف يتطلب المراسلة، وقد كان هذا ما كتبته في تلك الايام المشؤومة من رمضان ١٩٢٠:

"اكملت ستة اسابيع من اقامتي في المقاطعة وقد قمت برحلات واسعة بين القبائل. اشعر الان بانني استطيع اعطاء تقييم بارع عن الموقف المحلي. في البدء كان نقلي، وكان المزعج في ذلك هو الكلام الكثير، ورجل القبيلة مزارع، ولكنه سياسي بدائي، هنالك فعاليات وطنية، ولا احد يستطيع ان يستخف بحريتهم، وكل من يحاول احياء اراضيهم وانقاذها يستحق تقديرهم واحترامهم. التفكير السياسي كان عن زمرة قليلة من رجال الفكر في المدينة ليس اكثر من ٥٪ عموما، الوطنية غير معروفة لدى القبائل، وادراك التراكيب لخطوط الحرية لن يؤثر على الموقف المحلي. وهو صفر إلى واحد في الاقل ليس للاحسن، بسبب ثبات عدم ارتياحهم من جمع الضرائب، ليس من شك هنا بان الشيوخ الكبار سوف يرحبون بالرجوع إلى "حالات الدفع القضائي" حالات تحررهم من السيطرة، لا ضرائب، لا ايجارات اراضي. الشيوخ العصاة تعلموا ان يرددوا النغمة ذاتها، لذا عرفوا بان مصالحهم هي حين يكونون معنا ولم يحاولوا اخفاء الحقيقة بعيدا عن مسمع اخوانهم الكبار. ان اكبر كتلة من الناس في المدينة- في الحقيقة- هي من طبقة اصحاب المحلات. يكمن ارتياحهم واستمتاعهم بهدوء وامن الحياة، وملكياتهم حتى الان غير معروفة، كانوا يكونون قسما كبيرا قبل الانكليز ولكن حين تنظر إلى حقيقتهم نظرة سياسية فهم خائفون من ابداء ميلهم الحقيقي.



لقد تفجر الاستياء بين القبائل من جمع الضرائب، قلق وانزعاج في المدينة. الخوف من الاعتماد على القصبة المكسورة، اصدقاؤنا هددوا بانسحاب البريطانيين، والآن ما ذا يعني ذلك؟ ان موقفهم كان مسببا تماما اولا من تملق انفسهم مع مضطهدهم القديم المحتمل. اما بالنسبة إلى رجل القبيلة فاسبابه تقريباً غير خافية. في الحقيقة انها تنبئ بنظام الدم، والحق للاقوى، ولكن تحت حماية "خيون" فهو يعرف ان الايجار والدخل الحكومي والضرائب تكون ملغاة أو غير معترف بها.

لقد سيطر "خيون" على الموقف، انه مكار إلى درجة لا يمكن ان يقع في المصيدة. ان الاختيار الوحيد هو الاقتناع بالوضع الحالي ولكن هنالك امر لا مفر منه وهو ان واحدا منا سيستمر، من دون شك لا بد من الكياسة معه. لقد الزمته بحقيقة هي ان السعي طويلا سيخدم مصالحه كثيرا ويجعله خادما جيدا للحكومة. وهناك امر لا يمكن ان ينسى هو ان الشخص المؤهل للتخطيط وهندسة الانتفاضة في الغراف هو خيون العبيد. يحتمل ان تبقى بلا شك اسبوعا ويكون ذلك من دون تجاهله أو اسناده. لقد قاد قسما من عمليات الاقلاق الجديدة بعد وصولي مباشرة. وقد ملت إلى الاعتقاد بانه يرى في نفسه الان رجلا معروفا لدى الحكومة أو عليه علامة استفهام، لذا نراه مشغول البال بعمل جيد، وفي مناسبات كثيرة جاء ليراني واعلن بانه سيخدم الحكومة باخلاص.

ان اخبار الاحداث تتوارد يوميا ومهاجرون باعداد صغيرة معظمهم من النساء والاطفال يجدون طريقهم إلى المنطقة "ان حواس العربي في عينيه" وعلى المدى البعيد ستكون طباع اهالي اسفل الفرات الحادة قد عزمت (على العصيان) ولكن بقوة يميننا سوف نكبت الغليان عبر الحدود. الموقف هنا هادئ ولكنه غير طبيعي.

ان التحكم الدقيق في الموقف باخلاص- يجب ان يؤخذ بنظر الاعتبار، وخطأ واحد في ضوء الاحداث الجارية في انحاء البلاد كافة والتي يحتمل تطورها هنا يمكن ان يكلف المراسل الحربي أو المخبر حياته.



الأيام تنقضي بتثاقل، ليس هنالك فساد في وظيفتي على مدى رؤيتي، ولا داعي للخوف، الشيخ خيون وأنا أصبحنا أصدقاء بسرعة، ونحن ندين بذلك للمصيبة، لقد كان يروم الذهاب إلى الحج وقد خاب مسعاه، وأنا أريد أشياء أخرى مساوية ولكن عبثا، و"كل أعمالنا المشتركة كانت للخير". إذا كانت علاقاتنا الوظيفية في الأيام الخوالي قد صدأت فربما يكون السبب هو أن كلا منا يريد أن ينتهز الفرصة لشغل مركز الصدارة ليس هنالك من شك أننا في داخل أنفسنا نحمل بعض الحقد لبعضنا.

والحقيقة أنني أطعمت صقوره في أوقات كثيرة، أعطيته بندقية صيد (للتسلية)، لقد متعته بكرم الضيافة، كل ذلك في فترات من التحذيرات الوظيفية. كنت في الحقيقة دائما اخفي إعجابا لخيون كرجل لشيء واحد وهو صراحته ولكن اغلبنا - من المحتمل - يحملون نفس الشعور بسبب كونه نموذجاً فائقاً من نوعه.

خلال هذه الفترة الثانية من إقامتي في الشطرة اظهر مؤشرات غير طبيعية على عزمه ان يكون جيدا. وككل الشيوخ الآخرين في المنطقة بدا وكأنه لا يريد أن يعاكس في علاقته مع الحكومة، ونتيجة للأحداث العرضية اخذ مكان السلطة المركزية وخلال دعوتي المعتادة له إلى مائدة الطعام سألني ذات ليلة إن كان بالإمكان أن يأتي لنجلس معا بعد العشاء، فهنالك أمر مهم يريد أن يحدثني به.

خلال مجيئه كان رجلا ذا شخصية مهيبة، في منتصف العمر، طوله ستة أقدام تقريبا، اسمر البشرة، غامض التعابير، عيون خيون كانت تشبه عيون المنغوليين، طوله ولحيته المسرحة أعطياه منظر التتر. قال بعد انتهاء المجاملات:

"لقد نويت الذهاب للحج إلى مكة، هل يمكن ان تمنحني جواز مرور ذهابا وايابا"؟

فكرت في الموضوع، انه يستخدم في خطته طريق الناصرية أو البصرة وفي كلا الطريقين سيكون القبض عليه سهلا، وان اعطائي الجواز له يعادل "سند انقاذ من الحكومة" والقبض عليه بعد ذلك معناه عملية احتيال عليه، لا يمكن التفكير بخداعه



حتى بأحقر المستويات. ولكن افترض اننا لم نقبض عليه تأثير غيابه في الحج سيكون تاثير طرده أو نفيه نفسه، وهنا تكمن الصعوبة. إن سلوك "خيون" عند وصولي كان مثاليا. الموقف العام في اسفل بلاد ما بين النهرين في الجانب الاخر استمر بالتغير، الشطرة كانت- في الحقيقة- تبرهن على انها سهلة الانقياد ولهذا يجب الخوف من بغداد، لهذا ابرق الضابط السياسي للناصرية انها ستكون المكان الاول لقيام العصيان المسلح (الثورة). انها الان تاخذ موقفا اخر في العلاقة بعموم الموقف. ونتيجة لذلك كانت خطة الامس قد أُجّلت لليوم. لقد وجدت خيون مستقرا في منطقة اسفل الفرات، على اية حال ولو لهذه اللحظة، وانا سأجرب أن انظر للموقف خلال غيابه وانظر لمزاج الغراف، وهل يتغير للأسوأ؟ وصلت إلى نتيجة معينة: اذا كان خيون هو الرجل الوحيد الذي يثير القبائل فهو أيضاً الرجل الوحيد الذي يمنع ثورتهم.

لقد نظر الي خلال المائدة اثناء مرور هذه الافكار في راسي وقال:

"نويت ان ابدا الاثنين"

وهنا اتخذت قرارا جريئا وكريما فقلت له:

"شيخ خيون" "اريد ان اخبرك بعض الاشياء، انت تعرف الباخرة المدرعة في البدعة، لقد استدعيت تلك الباخرة المدرعة لكي اقبض عليك واخذك بعيدا".

اصبح وجهه حادا، وبدت عليه نظرات مخيفة! وقال "لماذا تخبرني بذلك"؟. قلت له: "ان السبب هو اذا سلكت طريق الحج فسوف يقبض عليك وتنفى خارج البلاد كسجين سياسي، انه الشيء الذي امرت به ووافقت عليه الحكومة".

"ولكن لماذا تخبرني هكذا"؟

"لانني اريد خيرك، وانا اريد ان تعود صداقتنا، اننا نعيش في اوقات عصيبة، يجب ان يبقى الغراف مخلصا للحكومة".

لقد رأى خيون أن بإمكاني احتجازه، وهو نفسه كان ينوي المسير إلى المصيدة، وقد خلصته منها.

ظهر الامتنان في صوته عندما تكلم وصافحني، وكان متعهدا بكلماته وهو يقول: "صاحب، لقد كانت أغراضنا متعارضة، ومن هذه الليلة نحن أصدقاء، ولا تخف على الغراف".

كان رجلا كتوما في كل الأوقات وقد شعرت بثقة في صداقتنا التي جددت.

في اليوم التالي اصطحبت الباخرة "كرين فلاي" متوجها إلى أعالي النهر بعيدا، إلى قلعة سكر لكي اخبر زميلي بما جرى، سلكت الطريق إلى الكوت بعد ذلك، مشتاقا للرجوع إلى مياه دجلة العميقة لان الفيضان بدأ بالتناقص، نهر الحي كان منخفضا، وفي حاجزه سيكون هناك قدم أو أكثر للرؤية الواضحة. وعلى أية حال فلا يمكن أن نتأخر أيامًا أكثر.

حواشي

(١) الصفران: فرع من اتحاد عشائر بني حجيم، وهم يقطنون مع هذا الاتحاد الضخم الذي تمتد حدوده من الدراجي على الضفتين من النهر إلى ما يقرب من خمسة عشر ميلا من مدينة السماوة، فمن الجهة الشمالية يتوسطون المنطقة الواقعة بين الرميثة والديوانية يراسهم معجون الحمادي.

انظر: "الطاهر: ن. م، ٢٨٨ من تقرير بريطاني سري".

(٢) بني سعيد: اتحاد عشائري، بالرغم من انه صغير الحجم فهو يتميز بالتضامن والتكاتف أكثر من الاتحادات الأخرى في المنتفك. والمنطقة التي يشغلها واسعة وكبيرة تمتد من الغراف إلى ذنائب قنوات دجلة في منطقة العمارة ولم يشترك من بني سعيد احد في حرب الشعيبة سنة ١٩١٥. وفي الثورة العراقية ١٩٢٠ هبوا للقتال ضد الانكليز إلا أن خيون العبيد استطاع صدهم والقضاء عليهم ورؤسائهم: نايف المشاي وعليوي المهرج وسكر النعمة.

انظر: "الطاهر: ن. م: ٢٢٤ عن تقرير بريطاني سري".



الفصل السادس

السيطرة على الحصن "القلعة"

هل نستطيع تحطيم انتفاضة القبائل العامة؟ إنها تعتمد على إمكانياتنا في امتصاص المشاكل المبكرة وهي في حالة التبرعم وهذا يعود إلى كفاءة قواتنا في حقل المعركة.

إن النذير الأول لم يكن مبشرا بخير. في آخر الشتاء "دير الزور" مقاطعة في أعالي الفرات في الخط المتاخم لبلاد ما بين النهرين وسوريا، كان به مشهد الروح الوطنية متأججاً وقد جاءتنا هذه الريح إلى مواقعنا. إن تردد القوات البريطانية المسيطرة هناك ورضاها بالغفلة عن حالة الشؤون الداخلية لسلطة سوريا الأخيرة دفعها إلى التنصل عن مسؤوليتها وقد أدى ذلك إلى تأثيرات مضرة.

المشاكل انتشرت هنا في الرميثة- التحدي الأول في أسفل الفرات- لقد كان ذلك امتحانا قاسيا، ولنقل للأسف- بان السلطة المحلية لم تستطع أن تقف هنا لتواجه المشكلة والحكومة جلت عن المنطقة. وهذا في ضوء ضعفنا عسكريا كان ضياعا للجهود إزاء مسؤوليات الحرب التي ذهبت أدراج الرياح، وفي المستقبل فان العصيان والتمرد أصبح حتميا وتتضاعف سرعته في الانتقال "إذا كان الأسلوب قد طبق- على أسلوب تمرد وسط الصيف- في السهول الاستوائية لبلاد ما بين النهرين، فمن الممكن أن يمر".

ليس هناك ما هو واضح بما فيه الكفاية، انه يبدو تمردا عربيا ونحن تعوزنا القوة أو القدرة على حماية أنفسنا.

ولكن يجب أن يبقى العلم مرفرفا في الشطرة: كان ذلك سبب وجودي ومسوغه.



"الاسبوع الاول"

من المشاكل. لقد كنت في لقاء ودي مع الشيوخ، وشعرت بثقة تامة في الموقف المحلي المخلص. أنا اعرفهم كلهم عن قرب، عرفتهم حقا منذ سنتين، وأنا واثق من إخلاصهم، وهذا فمن الحماقة للمسيحي أن يغمض عينيه عن الحقائق النفسية الأكيدة، اعني أنهم ذوو مزاج ملتهب وهم يتشربون بعمق بفكرة الالتزام لإخلاصهم الشيعي. "الجهاد" - التأثير وليس الضرورة، الذي يدعو إلى محاربة الكفار - كان واحدا من هذه الخصال. وهم لا يعارضون فكرة الفتوى التي نودي بها، أو يتحدون تعليمات قادتهم الدينيين في العتبات المقدسة. إن خوفي الرئيسي، كوني ضابطا بريطانيا منفردًا، وممثلا للحكومة في مقاطعتي يكمن في اجتياح أمواج الحماسة الدينية المفاجئ. خيون كان يأتيني في أواخر حزيران رافضا اعتقال علماء النجف، وابن رئيس المجتهدين[1]، وهذه الاعتقالات - كما يقول - وأنا اعرف انه يتكلم بتفويض، كانت تعد من قبل القبائل أشياء مؤسفة، وغير مقنعة. وكذلك أصبحت علاقتنا الآن أكثر قربا عما سبق، وأنا ما زلت أتذكر بان خيونا كان رجلا متدينا، بحواسي وقلبي، وبكل ما في الكلمة من معنى وكان ذلك مخفيا تحت حديثه معي، يعملون ذلك بإخلاص جيد، ولهذا فيجب ان يكونوا كذلك دائما في احتمال صدور أمر من رئيس المجتهدين، عالم النجف.

واجبي كان يقضي بان أبقى أطول مدة ممكنة في وظيفتي واعمل على التأثير الذي أُحدثه بكل هدوء لمنع قبائلي من المشاركة في التمرد.

الغراف كان مركز العاصفة لمنطقة المنتفك، وإذا انتفض فانه الإنذار لانتفاضة عامة لقبائل المنتفك. وهذا ما ابعد سكة الحديد من البصرة التي كانت سليمة وبعيدة كالناصرية. وأعطى الفرصة الجيدة لتقدم الجيش ليحتل مناطق الثورة في الحالات الضرورية لوصول الإمدادات من الهند. موقع الناصرية كان حقيرا وهزيلا وغير ملائم في هذا الوقت ولمدة شهرين آخرين. انه يتسع لثلاثة فصائل من المشاة الهنود ومائتين



من المجندين المحليين والشرطة في الحين الذي تكون فيه عشائر المنتفك مؤلفة من قوة تقدر بعشرين الف بندقية.

والغراف بالاضافة إلى ذلك يشكل حلقة الاتصال بين الفرات ودجلة، وفي حالة حدوث ردة فمن المحتمل ان تنتشر المشاكل إلى قبائل دجلة، في الوقت الذي بقي النهر الوسيلة الوحيدة للاتصال ونقل المؤن بين بغداد والبصرة، الشطرة اغتصبت، وبهذا فان وظيفة التكتيك المهم تنتهي واعلق كداعية سلام لتبقى القبائل في موقف مضبوط كان امرا ملحا.

إن العصيان المسلح- في الحقيقة- انفجر في المناطق المجاورة، "السماوة" تبعد ستة أميال إلى الغرب، كانت محاصرة، سكة الحديد كانت مدمرة، الرميثة كانت نازحة، البريطانيون والعرب كانوا في حرب، لاجئون وهاربون أكثرهم من النساء والأطفال جاءوا كركام مختلط إلى هنا، وأخبار البريطانيين المصابين كانت مائة وخمسين قتيلا والجرحى انتشروا كالنار[٢].

"الاسبوع الثاني"

من المشاكل: جاءت تقارير عن نجاحات جيدة للعرب، وقمة الدفاع للبريطانيين كانت مائة ميل أو ما يقارب شمال مسرح العمليات التي في الجوار.

رتل متحرك يتكون من سرية مشاة، سريتي خيالة وبطرية ميدان ورتل مانشستر- كما كان يدعى- هوجم غدرا في الليل قرب الحلة بعملية اكتساح من قبل بعض رجال القبائل وقد قاسى كثيرا. لقد سقط منه عشرون قتيلا، وستون جريحا، وثلاثمائة وثمانية عشر مفقودا، ونصفهم اقتيدوا اسرى[٣]. والعرب شكلوا اللجان وكانوا اعضاء فعلين في تلكم اللجان في الفرات الاوسط، ومن الحلة والسماوة[٤] كان لهيب التمرد، والان انتشر كالنار في مرج. ان اجلاءنا من الديوانية كان يواجه بشراسة. والرتل حارب لاجل الطريق إلى الشمال[٥]. وهذا ما ترك حدودي الغربية تماما في الهواء،



ولكن قبائل الشطرة بقيت ثابتة ومخلصة. فقط مساعدي العربي الذي ياتي بعدي بالامرية، عد المكان غير ملائم ورحل. لقد ظهر بانه يريد ان يغامر ويستفيد من تجارة البنادق الكثيرة والذخيرة الحربية الوفيرة، ان ذخيرة الحرب العظمى لم تكن ملائمة لمناسبة كهذه ولكنها كانت من البضائع الرابحة، في ذلك الوقت.

"الاسبوع الثالث"

وبينما كانت المعركة في بساتين النخيل وفي مياه بابل، اندلع التذمر الجانبي في المنطقة المجاورة لقلعة سكر إلى الشمال. كان زميلي(٦) هناك، وكان احدنا يتكلم مع الاخر صباح كل يوم بالتلفون، ولكن يظهر ان شيئا قد حدث للخط الان- كان من المستحيل النفاذ خلال المنطقة اليه. لقد كتب قبل فترة عن احتمال قيام الانتفاضة في منطقته وقرر ان خطط القبائل ستكون ضخمة خلال ايام قليلة، وقد طلب طائرة عسكرية. ولكن اسلاك التلغراف قد قطعت الان، وكان يجب علي ان اكتب للاستعلام عن الطائرات، بانهم يجب الا يتوقعوا هبوطا معتادا كحرف تي (T) للهبوط خارج قلعة سكر، فقط طائرة واحدة يمكن ان تخدمنا (ار، أي ٨) القديمة، نموذج حربي مع اجنحة عادية للاعلى، وتتوسع أو تنبسط، وفي هذه الايام التي لم تعد بطبيعتها بصداقة مع الانسان. لقد حطت في الشطرة اولا وطارت بي في اعالي النهر في اليوم التالي، ولكننا لم نر شيئا غريبا، ووجدنا قلعة سكر كما هي "OK" على ما يرام، وهكذا عدنا إلى الشطرة.

بالنسبة لي كانت الأيام تمر متوترة، أخبارها محزنة ومرعبة وملوثة وتصفية وترشيح كل يوم، معظمها محرفة من قبل حاملها، بعض منها من تلفيق واختراع الأهالي. المدينة كانت متلهفة، من وقت لآخر تصبح الشطرة ملتهبة، ولكنني كنت أتحمل وأعيش في حصن قوي عالما أن رؤساء القبائل بقيادة خيون كانوا يسندونني ويشكلون جدارا صلبا، متعهدين ومخلصين. وفي غضون ايام ستمر طائرة من فوقنا في رحلة استطلاعية، واعتياديا ستكون على ارتفاع امين يقدر بحوالي ٢٠٠٠ قدم، وبهذا سترى ككرة ثلجية



على ارتفاع عمودي لا يمكن لنيران العرب الأرضية أن تصلها. وفي حدود أسبوع سمعت محرك طائرة في علو قليل، تدور حول بيتي في إشارة بأنها تريد أن تلقي برسالة لي. واندفع شرطي ليجلب الحقيبة بأعلامها المشرقة الألوان والتي نزلت مجنحة من السماء.

إنها رسالة ترحيب من المفوض الأهلي، رسالة دورية تعميها لأولئك الذين في المنتفك، وفي المناطق الخارجية والذين احتفظوا بالعلم خفاقا.

"برقياتي إليك حول الموقف" (هذه واحدة تقول):

"إنني أتمنى تماما أن احتفظ بك موظفا ملائما.. الأحداث الأخيرة هي.. السياسة التي أرى من الضروري أن تتبناها، إن تعتبر الشطرة وقلعة سكر لمساعد الضابط السياسي وان تبقى في هذا المنصب طالما استطعت أن تجعل من الشيوخ أو من عدد كاف منهم إلى جانب الحكومة وبشكل جيد، وإذا وجدت الموقف لا يحتمل الدفاع فسأعمل ما باستطاعتي وسأرسل طائرة لنقلك بعيدا، وكعمل احتياطي لا تترك شيئا عدا ما تحتاجه واتلف الفائض من المعلومات المتداولة، احتفظ بتسجيل لأرقام كل ملاحظة تحرق.

انها فقط مسالة وقت وبعد ان يعود المد ثانية لصالحنا- واتمنى ذلك- فان الدقائق العشر التي تتمسك بها- والتي اعتبرها نابليون قرار النصر في الحملة- سوف تمكننا من الاحتفاظ بوظائفنا ومراكزنا في المناطق طالما نحن لم نتاثر بالتمرد".

ان الفقرة الاخيرة كانت نموذجا مشجعا، ولم يكن هناك ضابط في القطر غير مسؤول امام رئيس حقيقي عظيم يستلهم احترامه واخلاصه واعجابه.

لم اكن متاثرا بالحالة المالية الاخيرة لانني امتلك بضع مئات من الروبيات المعدنية والتي اعتبرتها للسفر ونفقات طوارئ. لم تكن هناك مناسبة لي "لشراء" الشيوخ. خيون نفسه كان غنيا مشهورا ولكنه لم يكسب قطعة نقدية واحدة لا خلال الاحداث ولا بعدها. ان اخلاص الشيوخ الاخرين كان عفويا وتلقائيا، لم يجازوا ولم يوعدوا بالجزاء.



"الاسبوع الرابع"

لقد اتصلت بالناصرية في ٢٨ تموز.

"إشارة إلى برقيتكم السرية بالأمس وتعزيزا لمحادثتي التلفونية اللاحقة، أنا أرى إن الجلاء عن الغراف الآن هو عمل قبل أوانه، يجب أن نبقى هناك بأي ثمن، أنا في موقف قوي، وإذا حطت الطائرة لغرض ترتيب الأمان العسكري فإن الشطرة لا تحتاج إلى أية انتفاضة".

الطائرات على أية حال- كانت تحتاجها مناطق أسوأ بكثير، ولكن العيش في مشاهد الهياج التي عمت كل المناطق، فمن الطبيعي ان يرى الواحد منا بان منطقته هي المركز (للقبة) السياسية، وحولها بقية المناطق التي كانت (تسبح) في مناطق غموض سديمية.

وفي أثناء ذلك كانت الناصرية ومناطق المعلومات الأخرى تتصل بالمفوض الأهلي.

"الخطر يحيق بالشطرة، خيون مخلص ظاهريا، ولكن الإشاعات تقول انه كان يقوم بمقابلات سرية، ويستعمل تقدير قبائل الغراف له لإثارة الموقف. وأعمال العنف قد اندلعت منذ الشهر الماضي. مريدونا الجيدون أصبحوا أعداء لنا، كم نحن ضعفاء عسكريا البنادق والذخيرة بدات تباع وتسرق بحرية، حمل السلاح الآن أصبح ملاحظا في المنطقة، ومغتصبو الأراضي بدأوا بجمع الرجال لقلاعهم الحربية، والأعداء القدماء بدأ احدهم يرصد الآخر وينتظر. أخبار الجلاء عن الديوانية وصلت الشطرة حيث لم تجد لها أي تأثير، أنا متفائل من إننا سنغطي فترة قلقنا حتى وصول الفرقة.

إن الرجوع إلى الشطرة أمر يمكن أن أتعهد بتأمينه. في الحقيقة كانت هناك زمرة من الساخطين ودم الشباب على راحاتهم لصنع تاريخ مجيد، وكان تأثير الإشاعات يسري



حول المقابلات السرية. ولكنني واثق من علاقاتي الشخصية مع الشيوخ القادة لتأخير اليوم المشؤوم.

لقد جاءت الاخبار المزعجة حقا من الجوار، من قلعة سكر. ان نظيري في الوظيفة هناك هوجم في كمين اثناء رجوعه بعد ان اظلمت الدنيا من زيارة صداقة لقبائل كانت خارج المدينة. عصابة من ستة اعراب حاملين بندقية (ام لوله) فتحوا النار عليه من مسافة قصيرة ومن بواعث السعادة انه لم يصب أحد ولكن اصيب حصانان.

لقد طلبنا مظاهرات عسكرية بالطائرات وزيارة لاثنين من الطائرات العسكرية المقاتلة من بغداد كانت قد نظمت. كانت هذه للتزود بالوقود من الكوت وتطير فوق قلعة سكر وتجعل من الشطرة محطتها الاولى للوقوف... وحينما جاءوا دفعهم حب الاستطلاع للنزول فوق قلعة سكر على علو ١٠٠٠ قدم ليروا ما اذا كان هناك اية علامة لوجود حرب لم يكن هناك أي شيء ولكن مجموعة من الشبان جلبوا انتباه احدى الطائرات ولذلك هبطت ليسالوا عن "السياسي" بينما بقيت الاخرى في الجو ودارت حولها.

ولسوء الحظ فان الطائرة التي هبطت تعطلت ماكنتها على علو مائة قدم، ولهذا لم تستطع ان تعود إلى الهبوط على الارض مرة اخرى، واضطرت إلى الهبوط في مكان وعر وتحطمت.

قائد الطائرة الثانية "دي. ار. سي. كريج" الذي نال شهرة واسعة بعد حصوله على كاس شنيدر اتى الي في الشطرة جالبا لي اخبار الطائرة المحطمة المحزنة. وقد اكملت للاسف "الكتابة" بانه كان محظوظا ولم يتالم.

هنا كانت يد الله أيضاً، قلعة سكر كانت تعاني من مواعظ "المومن"، واحد من اصغر "المعممين"(٧) الذي وصل توا مع انجيله المؤذي لدعوته للتمرد. ذلك ما جعل يد القدر تصافحه، لقد احدث موته ضجة بين الاهالي غير المحظوظين.



"الاسبوع الخامس"

في وقت واحد دائما مع هذه الاحداث البائسة في قلعة سكر كانت قبائل السماوة تتفحر. عبر النهر في طوافات استحثوا من قبل بعض المثيرين الذين كانوا يقولون بوجود ذخائر خفية ويدفعون الذهب لقاء قلع أي عارضة خشبية لسكة الحديد، لقد هاجموا سكة الحديد اسفل المدينة. والان بدأ تمزق الناصرية نفسها، عصابات قليلة من العرب كانوا يهاجمون المدينة كل ليلة، في مناسبة واحدة حاولوا ان يدخلوا إلى هنا محتملين الاغارة على السوق، أو لاشاعة جو من الخوف وعدم الامان، وعصابة اخرى خططت للتاثير والدخول في بساتين التمر، من الضفة الاخرى، ولكن هذه كانت مغامرات متفرقة ليست لغرض مهم وجدي، وهنالك مشكلة لم يمتحن بها الموقع الاهلي الصغير كثيرا، لقد سمعت بهذه الاحداث بالتلفون في الساعة السادسة بعد الظهر، كان من الروتين ان تتغير اخبار الناصرية - الشطرة، وبدات افكر ان الشطرة احدى الاماكن التي تتمتع بالسلام والامان، ومع التدهور التدريجي في الموقف كانت الناصرية تطلب من بغداد طائرات ومزيد من الطائرات.

جاء في احدى البرقيات: "اذا فشلنا في ارسال الطائرات إلى قلعة سكر، انا اشعر باننا يجب ان نجلو منها، واذا سقطت قلعة سكر فالشطرة يجب ان تستسلم، لا نستطيع ارسال حتى طائرة واحدة يوميا إلى قلعة سكر".

ورد الجواب: "لدينا فقط خمس متيسرة سويًا" في بغداد وهي تستعمل في مكان اخر".

وصلت طائرة واحدة، جاءت إلى قلعة سكر لتجلي مساعد الضابط السياسي- رسالة المفوض الاهلي وصلت اليه باليد ونصها: "لقد وصلت وناقشت مع جي أو سي- في- سي X والبرقية Y، قصر المطار جعل من غير الممكن ارسال طائرات بشكل اعتيادي في عدد كبير إلى الغراف. أي طائرات على هذا الطراز الذي نملكه، من الممكن ان نستعملها بشكل مؤثر في مكان اخر. بالاضافة إلى ذلك من الصعب ان نخلصك

حتى بالجو، لان الموقف في قلعة سكر أصبح أسوأ. وخلال وصول الأفواج الوشيك للناصرية فمن الممكن أن يستقر الوضع في الكوت والناصرية".

ولهذا وجهت بواسطة جي أو سي- في- سي بان تتوجه في هذه الطائرة إلى الناصرية وتنتظر اوامر اخرى هناك.

مساعد الضابط السياسي(٨)، كان مشمئزا من فكرة الذهاب، ولكن الاوامر كانت حاسمة، وكذلك انا وجدت نفسي وحيدا في الشطرة، المناطق المحيطة بالرميثة والديوانية وقلعة سكر كلها اجليت، كذلك السماوة والحلة على الفرات، وبينهما وبين الكوت على دجلة كتائب القبائل الخصوم.

"الاسبوع السادس"

شيوخي مازالوا ياتون لرؤيتي، ولكن بعضا منهم فقد تفاؤله، كانت لديهم مشاعر كما يلاحظ المرء- بانهم كانوا يراهنون على الحصان الخاسر، أو بأنهم أساءوا الاختيار عندما نترك القطر. هم سألوا: اذا لم يكن كذلك لماذا لم يصل الجنود حتى الآن؟ لقد كان هناك سبب لسؤالهم.. المشاكل لا تاتي فرادى، ان عملية الجلاء في قلعة سكر تتطابق مع عملية الاستيلاء على السفينة المدرعة "كرين فلاي" في الفرات بين الناصرية والسماوة. والتي كانت مع كل طاقمها مقلقة، وبانسحاب عسكري إلى منطقة "اور" كما كان مقرراً لها ولكن المجازفة التي تتضمنها هذه العملية هي كونها اتجهت للنجدة أيضاً وبشكل جدي واعتيادي لملاذاتنا العسكرية الضعيفة ولكن للاسف... قائدها الشاب وطاقم السفينة لم يشاهدوا بعد الان، لقد كانت نهايتهم غامضة، ولكن غياب أي اثر لهم كان يعني بانهم سيظهرون ثانية، ومنذ الليلتين الاخيرتين وعلى بعد ثمانية اميال إلى جنوب الشطرة، كان سلك البرقيات قد قطع وعدة اعمدة كانت قد اسقطت. وهذا ما قطع الاتصال بيني وبين الناصرية الا بواسطة الساعي. كانت مسافة السفرة اربعة وعشرين ميلا والطريق يتطلب يومين على الاقل لانجاز المهمة، والانسان يشعر بالعجز اضافة إلى انقطاعه عن العالم الخارجي، لقد اخذ شيوخي على عاتقهم تهيئة



السعاة، ولذا فقد كنت أحتفظ بصورة طبق الاصل لكل رسالة مهمة، وفي هذا اتخذت صديقي القديم حجي الماس مساعدا وهو رجل قوي ومخلص وقد رفعته إلى وظيفة اعلى في البلدية.

اذكر جيدا لقائي الاول بالحجي الجذاب ولم احلم بان تصل علاقتنا إلى ما وصلت اليه حاليا. كان بمناسبة تعييني الاول في الشطرة، حيث ان خادمي ابلغني في الفطور ان احد الوجهاء جاء ليقابلني فاشرت اليه ان يدعه يدخل إلى دائرتي وينتظر مجيئي ولكن "فراشي" التفت ثائرًا بعصبية ومفترضا ان لا شيء غير اعتيادي اذا استقبلت رجلا فاضلا في دائرتي الخاصة. وهكذا رايت الحجي في الطابق العلوي. كان رجلا من المدينة، كبيرا، وبدينا، شاحبا ورقيقا، شخصية ضخمة "بعباءة" جوزية، و"عقال" صوفي ثقيل، وبمجرد ان دخل وقف واغلق الباب.

خطوط الطبيعة الاعتيادية بدت منحرفة، وبعد حين احسست ان جسما غريبا يختفي تحت انتفاخ عباءته، نهضت لأرحب به في الحين الذي بدأ يتكلم بكلمات الترحيب، وقال بانه شعر بان المناسبة تستدعي ان يترجم عواطف الناس في الشطرة. لقد كانت عواطف حارة. كان الناس سعداء ويباركون وصولي وهو نفسه كذلك خادمي المتواضع، قد جلب بكل احترام وتقدير شيئا اخرجه من بين ثنيات عباءته وكان ضخما ومزخرفاً كانت ساعة من نوع الهدايا التي تحتل مكانا وسطا فوق رف الموقد. قلت له:

"من أي نوع أنت"؟

ودعوته للجلوس على المقعد. وقلت:

"ولكن يجب أن تقدر بان الحكومة لم تسمح لي بأن أقبل مثل هذه الهدية الثمينة".

لقد أربكني فعلاً أن تقال مثل هذه الكلمات المثيرة في التقدير والاحترام.



بعد أربع وعشرين ساعة من وصولي، لم تكن عيوني قد وقعت على حجي الماس سابقا، ولهذا فكرت بأنه من الممكن أن تكون إجراءات معتادة في السابق في أيام الأتراك. كان الباعث الأول هو إنهم ظنوا أنني سهل الانقياد لهذا النوع من الأشياء، وخفت إن أريه ذلك بقولي: "كضابط بريطاني، حجي، يجب أن أخبرك بأننا نشتري أي ساعة نحتاجها، ولا استطيع قبول هديتك".

فأجاب: "ما تقبلها صاحب"! قال ذلك بشك واستمر "انه شيء مخجل كثيراً بالنسبة لي، لا استطيع إرجاعها، وإذا لم تدعني اتركها هنا فيجب أن ارميها خارج الشرفة إلى ساحة البيت وأحطمها إلى قطع".

قلت معترضا "حجي، أنا رجل سلام وأريد أن نكون أصدقاء، ولهذا يجب أن تأخذ هديتك وتذهب".

فقال: "غير ممكن، إذا لم تقبلها فيجب أن أحطمها".

رددت عليه ووقفت: "حجي الماس، يجب ألا تثير فوضى في ساحة داري، إذا رميتها فسوف تجبرني أن أرميك مكرها وراءها".

عند ذلك غير حجي الماس من تفكيره وقال بأنه يدلل على تقديره المتحمس ويجعله فوق كل الأشياء من اجل السلام والأمان. ولذلك ارجع الساعة الرخامية إلى الظل تحت عباءته واستدار إلى الخلف إلى الباب الخارجي، ابتسم ابتسامة باهته، وذهب.

أخيرًا وبعد أسبوع قدرت معنى تلكم الإيماءة. احد واجباتي كان هو أن أعلن وأؤكد على ضرائب البلدية. لقد قطعت للتجار الأهليين الذين كانوا فيما بينهم يتنافسون في مجالات المزاد العلني، انه من واجبي (أن أصارع) في الحقول الواسعة، من بين المزايدين العنيدين كان حجي الماس. كان من عادته أن يمسك ببستان حكومي واحد، ويحاول جعل آخر من حصته، وهذا تحت مطرقتي ولهذا فقد ربحه والسبب في حصوله عليه هو انه اكبر مزايد، ولم تاتني ساعات رخامية خلال خدمتي في الشطرة.

وفي السنتين الاخيرتين في وقت المشاكل، كان حجي الماس وفيا للدولة، لقد جلب لي الاخبار من السوق، من الجموع ومما يقال أو يُفكَّر به بينهم، اخبار النشاطات للرجال الميالين للمشاكل الذين يتصلون بمراكز القيادة للثوار، الرجال الذين كانوا ناضجين للتمرد وبمجرد سنوح الفرصة ومن الاجتماعات العامة التي بقيت على مصداقيتها.

ولكن الموقف في الشطرة لا يبعث على الارتياح، كثير من المعلومات يجب ان تصفى وتعزل تلكم المعلومات التي يقصد بها التسلية. وهذا ما دفعني إلى الوراء إلى الاحتمالات المنطقية، ان سقوط قلعة سكر انقص من حصتنا، كانت هناك فرصة واحدة لرد الاعتبار وهي اذا استطعت تحريك الغراف مع اصدقائي النموذجيين واحتلال المكان، ولهذا سالت كابتن هول الذي كان امر مجموعات المجندين في المتفك عندما ارسل الي. اختلفت مع هول حول ان ابقي العلم مرفرفا في الشطرة، لقد فكرت بان اعمل على التحرك للأمام مع مئة من الأصدقاء على أمل إن الدفاع الجيد هو الهجوم، وبهذا المعنى أوقف تضاؤل فرصنا. وفي أثناء ذلك كان شيوخ قلعة سكر ومائة أو مائتين من الأصدقاء والتابعين اندفعوا إلى الشطرة، وكما يبدو أن ذلك إيماءه منهم لإعطائي العهد بالنجاح لخطتي، في الواقع وكما اكتشفت في الأيام التالية أن وصولهم ليس بهدف الصداقة، لقد جاءوا بتأثير دعوة من احد الأهالي المسمى "سيد" لغرض مختلف تماما، اعني لترتيب توحيد العمل مع قبائل الشطرة في زحف جريء وجسور على الناصرية. إن مثل هذا الاتحاد ولا يصمد أمامه موقعنا العسكري الصغير، انه اتحاد القبائل لساعة الصفر. خيون لعن هذه المؤامرة باطراء ضعيف، لقد تعهد بإسناده فقط عندما تسقط الناصرية، ولهذا لم تتخذ قبائل الشطرة موقفا واضحا، ولهذا فشلت المؤامرة.

"الاسبوع السابع"

وصل الكابتن هول، وكان شيئا مريحا جدا ان يكون هناك انكليزي اخر في هذا المكان. العيش منفردا خلال الاسابيع الماضية يشكل اجهادا وتوترا بقطر مائتي ميل إلى شماله الغربي امتد لهيب العصيان، ان التوقعات الصعبة لتطورات مفاجئة في أي لحظة

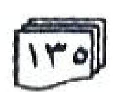


في الشطرة نفسها وان تعيش اسبوعا تقريبا من دون تلفون لتتصل بالناصرية والعالم الخارجي والاعتماد على "السعاة" الذين من المحتمل في أي وقت ان يبرهن احدهم على عدم جدارته بالثقة أو الاعتماد عليه (صعب جدا).

ان عملنا الاول هو فتح صناديق القنابل التي ارسلها هول نفسه مغلقة كصناديق البيرة من الخارج ابتعادا عن المشاكل، للاسباب السابقة والمتفرقة وللامان تركنا القنابل جاهزة وبعد ذلك احتفظنا بها في اسرة مخيمنا في السطح الذي كان مكانا رومانتيكيا لاسرة المتزوجين.

بعد ذلك بيوم أو يومين ذهب هول إلى الناصرية بالزورق مع تقاريري حول تغيرات الموقف في الغراف، وليجلب لنا بعض الذخائر، وقد وقع في كمين وهو في طريق العودة، اذ انقلبت السيارة فجاة عند نهاية الطريق قرب الجسر في نهاية مميتة، وهنا ابعدت عنه تلك البنادق وهو في مكانه. ثلاثون رجلا فقط اكملوا التمرد، قفزوا فجاة وغطوه وغطوا السائق ببنادقهم (أم اللولة) وللعناية الالهية، شيخ خفاجة كان في المقعد الخلفي للسيارة، تدخل فانقذ الموقف السخيف فارتجت السيارة فجاة ورجع قسم هول إلى الخلف واستطاع الشيخ ان يمسك برئيس المهاجمين وياتي به الي في الشطرة.

احد تجار الشطرة الصغار، كان من المتمردين المشهورين كان شريكًا في هذه القضية. وفي الليلة التالية ارسل رسالة إلى عناصر التمرد في خفاجة حول فقدان القانون والنظام واخبارا عن انتفاضة الشطرة بقيادة خيون وهول وانا الان سجينان بايدي العرب، بالاضافة إلى ذلك حطم الشباب اعمدة البرقيات لمسافة خمسة اميال وقد ضموا الجسور على طول قناة الشطرة إلى غابة النار. في غضون الايام اللاحقة كانت الاسلاك والطرق التي ترتبط بالشطرة قد قطعت، وسبيلنا إلى الهرب- إذ وصل الحال إلى ذلك- قد انحصر بان نهرب متخفين في الليل أو بواسطة طائرة، ولكن الامور لم تصل إلى ذلك الحد، ان التمردات المتقطعة من هذا النوع لم تكن مرعبة للحد الذي وصلت اليه، وظهر الان في هذا الموقف ابن رئيس المجتهدين[٩] كتب بانه على بعد



عشرين ميلا شمالا وهو يتقدم إلى الشطرة، داعيا إلى الجهاد، لقد لقيت تلك البشارة وللاسف نجاحا كثيرا على طول الفرات وهي تمتلك امكانيات الانتشار بشكل مزعج، عندما وصل (مومن)[١٠] مغمور من قلعة سكر إلى الشطرة قبل اربع ليال في قضية مشابهة ولكنه بقي صامتا، لقد خفت من ان يتاثر الشيخ خيون بهذه المؤثرات، ولكن الزيارة الغامضة كان تحتها غطاء من نوع آخر، كرعاية مسجد مثلا، وهو كان امام مسجد وكان من الممكن ان يعمل فوضى اسوأ من الارتباك، "اسقف" اعلى جديد نصب حديثا في النجف[١١] انه يمثل الكثير جدا، وان يكن عاملا محليا حاسما، وبغداد وان كتبت عن الموقف، موقفه، فسوف يقولون انه يميل إلى جانب المتطرفين.. والشيوخ الذين نصبتهم ليكونوا سندي وقوتي، اظهروا علامات التردد. لا بد ان تكون هناك خيانة أو غدر، كما ا شعر، اذا اكتسح هؤلاء بالاعتبارات "مراعاة لمشاعر الاخرين" ووقاية لانفسهم بانحيازهم إلى المعسكر الاخر، ومن حسن حظنا كان قد بدأ انحسارهم، ولم تكن هناك اشارة إلى خروج بندقية من مخازننا، والحقيقة ان بدء الانحسار بات وشيكا، بالرغم من اولئك الشيوخ الذين كانوا يقفون باماكنهم بنفوذ كاف لمجرد ان ابقى معلقا هنا، ومن الحسن ان تبقى العاصفة تصرف نفسها حول الشطرة من ان تتحرر وترمي بنفسها ضد الناصرية بحاميتها البائسة وسكة حديدها غير المحمية.

"الاسبوع الثامن"

في الفرات الاوسط الحكومة منسحبة تماما، والقبائل العربية هناك كانت مهتاجة بسبب النجاحات، اخبارها كلها قلما تكن أو تضعف عن تشجيع العناصر المحلية عن الشغب. وسقوط موقع البريطانيين في الخضر[١٢] القريبة جدا من الناصرية في هذا الوقت كانت الاشارة الاخيرة، ومن المؤكد ان وقت الشطرة قد صار قريبا.

الاستياء ظهر في قواتي، سوارز وبوليك كتبوا الي بان اراهن على بنادقهم بثلاثين باونا للقطعة اشارة إلى نجاح العرب في تلك الاوقات مقابل سقوط الحكومة، كان



ذلك في إحدى الليالي عندما أصبح الإغراء قويا، والأخطاء بدأت بالظهور، عشرة رجال فروا بالحقائب والأمتعة. هول وأنا نزلنا إلى السراي في الصباح الباكر، كان هناك استعراض، وجردنا العشرين الآخرين من السلاح وجلبنا البنادق معنا إلى بيتي، ثم وضعت القوة تحت إمرة خيون وجعلته مسؤولا عن القانون والأوامر في المدينة- خطوة مؤسفة- ولكن المرء مطالب بها في موقف محفوف بالمخاطر مائتا شاب كانوا يتجمعون أمام بيتي ويتظاهرون، القبائل كانت تحمل السلاح ثانية، المؤمنين كانوا يتحركون هنا وهناك وبينهم دعاة للجهاد، وإطلاق رصاص البنادق كان يسمع خلال الليل داخل وخارج جدران المدينة وقد أصبح أمرًا اعتياديا.

لقد حاولت الوقوف للامساك بالسلطة، خيون كان مشاوري وصديقي، أكد لي ذلك، طالما كنت في الشطرة فكل شخص سيحترم عملي وشخصي، ولكن كان من الواضح لدي أن حضوري كان يسبب إرباكا وإحراجا لكل أصدقائي القدماء. العاصفة بدأت تنمو وتكبر، وبدأت تهدد بالخطر، وعندما تنفجر فليس من الممكن ان تستطيع محالفاتي من الوقوف ضدها، على اية حال فان فكرة بقائي منتظرا التطورات- ويمكن القول- في موقف لا استطيع السيطرة عليه كان لا يحتمل بالنسبة لي.

الأمور تسير بعجلة للقمة وبعد يومين في ٢٥ آب جاءت دعوة الجهاد- العالم- الكبير دعا إليها "كالقديس" شخص يلبس البياض وبعمامة من نفس اللون وبحجم اسقفي (١٣) لقد دعا المتمردين إلى إسقاط الغراف وعند وصوله خرجت المدينة كلها لتقابله، مظاهرة كبيرة بالإعلام أخذت مكانها خارج بيتي، إطلاق النار من السطوح تحية لمقدمه إلى المدينة، ومجموعة من الشيوخ جاءوا ليملي عليهم الأوامر الحازمة بجلب القبائل.

المكان كان بجلاء حاراً جداً ولا يحتمل بقاءنا مدة اطول، لقد قررت النزوح عن هذا المكان اذا كان ذلك ممكنا. رسالة اس. أو. اس. كانت قد ارسلت سرا إلى الناصرية لسؤال بغداد عن الخطط ولكنها كانت تعني شيئا واحدا هو كيفية انقاذنا من المصاعب الحالية.



اولا: ان ارض الهبوط تبعد حوالي نصف ميل خارجا في الجانب الآخر من النهر خلف جدران المدينة، ومشينا إلى هناك من بين الجموع التي من المحتمل ان يكون متعصبوها يمكثون بانتظارنا.

ثانيا: اذا نزلنا إلى الزورق بشكل فردي، فان تغيير الجو سوف لن يكون جيدا بالنسبة لصحة هول ولا لي شخصيًا.

ارسلت إلى خيون واخبرته بخططي السرية، وشكرته لاخلاصه الحقيقي للحكومة واكدت له ان الناس سيكونون في وقت ما ممتنين له لبعد نظره وتخليصه الشطرة من غضب الانتقام، انتقام الجيش الذي سيمتد عبر العراق، حفظ القانون والاوامر، ومعاقبة الشريرين وكذلك عهدت بالدائرة التي ساتركها اليه.

لقد كان صباح يوم ٢٧ وازيز الطائرات المحلقة فوق المنطقة كان صوتا مرحبا به من اثنين من الانكليز، ان العمل الفوري الان هو اخراج الرصاص من كل البنادق في البيت والمتفجرات من القنابل ولم تمض لحظات على طمرها حتى وصل خيون مصطحبا معه كل شيوخ الشطرة المخلصين. ما زالت الطائرتان تحلقان فوق بيتي على علو كبير ويرصدون التمرد الذي سيمنعهم من النزول، اذا كانت هناك اية اشارة لوجود الاعداء، ولكن كان لا بد من الذهاب إلى الناصرية. لم يكن هناك وقت لنضيعه في اظهار انفسنا.

هول وانا خرجنا يتبعنا الشيوخ وحشد كبير، وهكذا مررنا في موكب مهيب على طول النهر وعبره، نحن الان في طريقنا إلى ساحة هبوط الطائرات فيما وراء المدينة، لم يكن هناك تجمع أو تظاهر من أي نوع ولم تكن هنالك اية اشارة لعدم الاحترام، ولكن كان الصمت المهيب يخيم على الجميع.. لقد كان الخروج.

واحدة من الطائرات حطت والطيار بقي في الركن المخصص له في الطائرة بحذر، ونبرات دقات دعاماتها كانت تسمع بوضوح. قلت له: "ليس هنالك خطر، يجب ان



تنزل وتسلم على الشيوخ". وكان ذلك تشجيعا للطائرة الثانية التي كانت تدور حولنا، استنادا إلى الخطة في حالة حدوث أي شغب، لتنزل وتاخذ مكانها.

لقد قررت باننا يجب ان نتعجل بالوداع، ولهذا بقينا جميعا نتحدث لمدة خمس دقائق بغير تكلف، وبجذل وكنت اتساءل فيما اذا لم اكن قد عملت عملا سيئا في تركي الوظيفة، لقد رايت ان بامكاني ان اقر السلام ولكنني قرات الرسالة التي جلبها لي الطيار من رئيسي في بغداد مرة ثانية ونصها:

"طائرتان هنا لاجلائكما انتما الاثنين من الناصرية، يجب ان تترك الشطرة مباشرة، بالطائرة، لا تغيير في الحالات اللاحقة لرسالتك الالتماسية بواسطة الضابط السياسي، لغرض اجلائك سوف يكون من قبلي وهو خير من بقائك، وهذا يجب ان يعتبر من قبلك واضحا. وامر نهائي لترك الشطرة".

لقد تكلمت قليلا مع العرب المحتشدين وقلت لهم: "بانني سوف اعود اليهم "كحاكمهم" بمجرد ان تسمح الاوامر والقانون، والتي لن تتاخر بالعودة، واثناء ذلك ساترك زمام الامور والدائرة بيد الشيخ خيون.

لقد حفظت كلماتي معهم كما حفظوا كلماتهم معي.

كان صوت المحركات والمكائن، وهبة ريح قوية على وجوهنا كأن الطائرة تسابق بجنون للامام وتتسلق الهواء.

ولم يدم ذلك طويلا حتى نزلنا في المطار بالناصرية، وبمجرد أن نزلت بين البدلات العسكرية المألوفة للجنود البريطانيين، انزاح عن رأسي هم وقلق كبير، وبعد ساعة وجدتني أقف أمام خارطة واشرح الموقف لقائد الغرفة الذي انتظرناه طويلا، وأخيرا وصل لقد أصبحت ضابط استخبارات أولا للواء ٧٤، ثم كثيرا وكثيرا من الجنود جاءوا للفرقة السادسة.



كان مدُنا في تحسن، القبائل المخطئة استسلمت، غضب وعصيان بلاد ما بين النهرين انهى نفسه، وقبائل المنتفك أعلنت توبتها لتعيش بسعادة وللتخلص من تلك السمعة الشريرة للثورة. لم ينتفضوا ضدنا من المحتمل بعدهم عن التأثيرات التعصبية للمدن الدينية، كان هو المسؤول عن ذلك. وبالتأكيد هم ربحوا على الأقل من نهر الذهب الذي جرى متقطعا من الخزينة البريطانية إلى ايدي الساخطين عن طريق سوريا.

ستة اشهر ثم رجعت إلى الشطرة ضابطا سياسيا للغراف، اضافة إلى منطقة قلعة سكر التي اضيفت إلى واجباتي، وهناك بقيت اسعد ستة اشهر في حياتي ثم تركت فراغي، وقسمت متعتي بين متعة الضابط الانكليزي الوحيد بين مجموعة من الكلاب الطويلة والانغماس في حماس هواية البحث عن الاثار. لقد هجرت القبائل السيف ثانية إلى المحاريث، وشيوخي رأوا بانني من غير الممكن ان اكون بغير فؤوس سرية للحفر في خرائب المدن للامة القديمة.

وحان اليوم الذي يجب ان اغادر فيه محبوبتي الشطرة، لقد نقلت وفي عشية رحيلي دعيت إلى حفلة في حديقة، وجدت المكان غاصا بالشيوخ ووجهاء البلد، لقد كانت حلقة وداع.

قالوا عندما كنت متهيئا للرحيل:

"هنالك شيء نريد ان نهديه لك، انه سيف، انه السيف الذي قادنا إلى معركة البطنجة"(١٤).

كان ذلك السيف شيئا نفيسا بالنسبة لي، يعيد وفاء واخلاصا قديما لا ينسى.

الحواشي

(١) الصحيح أنهم علماء كربلاء، حيث ان الميجر بولي الحاكم السياسي للحلة استدعى لمقابلته في صباح يوم ٥ شوال ١٣٣٨هـ/ ٢٢ حزيران ١٩٢٠ م كل من: الشيخ محمد رضا نجل الشيخ محمد تقي والشيخ هادي كمونة، ومحمد شاه الهندي وعبد الكريم العواد، وعمر الحاج علوان، وعثمان الحاج علوان، وعبد المهدي القنبر واحمد القنبر، ومحمد الطباطبائي، والشيخ كاظم ابو اذان وابراهيم ابو والده والسيد احمد البير.

وقد تردد المستدعون اولا وقرروا مقاومته مهما تطلب الامر، ولكن الشيخ محمد تقي الحائري اوعز إلى ولده الشيخ محمد رضا ان يكون في مقدمة من يجب تسليم انفسهم إلى السلطة، واوعز إلى الباقين بوجوب تلبية امر الحكومة فسلموا انفسهم فورا ونقلتهم السيارات المصفحة إلى الحلة وارسلوا منها بالقطار إلى البصرة وبالبحر إلى جزيرة هنجام في الخليج العربي.

وبعدها قامت مظاهرات في كربلاء وامتدت إلى المناطق الاخرى.

"الحسني، ن. م، ١٤٦".

(٢) يذكر الجنرال هالدن ان الخسائر بلغت في هذه الحادثة ٤٨ قتيلا بينهم ضابط بريطاني واحد و(١٦٧) جريحا بينهم ضابط واحد، اما خسائر الثوار فكانت طفيفة جدا بالقياس إلى هذه الارقام.

"هالدن/ ثورة العراق ١٩٢٠/ ترجمة فؤاد جميل ص١٠٨".

(٣) انها واقعة الرارنجية التي حدثت في ٢٣ تموز ١٩٢٠ وقد ايد هذه الخسائر الجنرال هالدن القائد العام للقوات البريطانية. "انظر ثورة العراق. ترجمة فؤاد جميل ١٣٨" الا ان السير أي تي ولسن وكيل الحاكم الملكي العام يذكر ان عدد القتلى (١٨٠) وعدد الجرحى (٦٠) وحوالي (١٦٠) اخذوا اسرى، مع خسائر جسيمة في وسائط النقل - العربات والحيوانات - "انظر: الثورة العراقية: ترجمة جعفر خياط ١٠٤" ويؤيده د. سندرسن في ص٥١ من كتابه "The Thousand and one Nights".

(٤) يقصد حزب الثورة العراقية الذي تشكل في النجف وفيه اعضاء من كافة انحاء القطر خصوصا من الفرات الاوسط مثل الحلة والدغارة وعفك والهاشمية والجزيرة وغيرها. فكان في الناصرية الشيخ عبد الحسين مطر، وفي سوق الشيوخ الشيخ محمد حسن حيدر وهكذا باقي المناطق.

(٥) ادى سوق الجيش من الحلة إلى الديوانية التي هي شمال منطقة المنتفك" إلى حدوث ثورة في منطقة الحلة، حيث عمد فريق من بني حسن إلى تحرير بلدة الكفل في ٢٠ تموز فاتخذ قرار بسوق الجيش إلى الكفل، وهناك حدثت معركة الرارنجية المعروفة، فانشغال الجيش في تلك المعركة جعل الحدود الغربية لتوماس مهددة في غياب قوة عسكرية.

(٦) الكابتن كراوفورد "Capt. W.F. Crawford" مساعد الحاكم السياسي في قلعة سكر وقد عين لها في ٢٨ شباط ١٩٢٠.

(٧) يقصد الشيخ عبد الحسين مطر - عالم الناصرية - فقد جاء إلى السوق وهو يحمل رسالة من شيخ الشريعة موجهة إلى رؤوساء العشائر يحثهم فيها على الجهاد، فنزل في ضيافة الشيخ محمد حسن حيدر، وصار الرجلان يتعاونان في حث الناس على الثورة.
"ذكرى علمين من ال مطر ٢٨".

(٨) تم اخلاؤه إلى الناصرية في ١٢ اب ١٩٢٠ "كامل الجبوري".

(٩) يقصد المرزا محمد بن المرزا محمد حسن "كامل الجبوري".

(١٠) لعله الشيخ محمد نجل الشيخ حبيب الله، الذي وصل المنطقة قادما من النجف، وكان حاملا راية خضراء لاستنهاض القبائل، فجمع حوله لفيفا من المسلمين ومكث مع الثوار زهاء اربعة اشهر يهاجمون الناصرية.
"الحسين، ن. م، ٢٥٢".

(١١) يقصد الشيخ فتح الله شيخ الشريعة الذي خلف قائد الثورة الراحل الشيخ محمد تقي الحائري المتوفي في ١٣ اب ١٩٢٠م/ ٣ ذي الحجة ١٣٣٨هـ.

(١٢) في منتصف اب ١٩٢٠ "الجبوري".

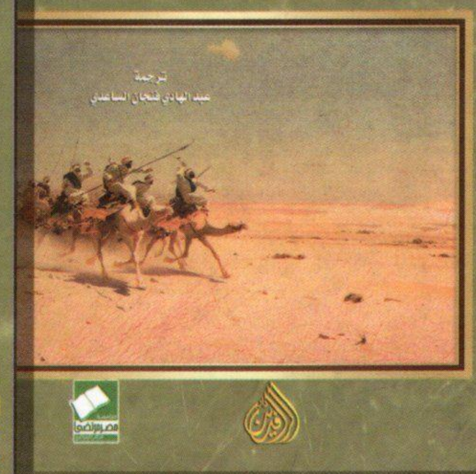


(١٣) يذكر د. الوردي ان التوتر وصل قمته في الشطرة في ٢٥ آب حين وصل إليها العالم الديني الشيخ محمود الخليلي مرسلا من الشيخ فتح الله شيخ الشريعة في النجف، فقد خرج اهل البلدة كلهم لاستقباله، كما خرجت مظاهرة كبيرة تحمل الرايات امام بيت الكابتن توماس تحديا له، ولما دخل الخليلي البلدة عج الفضاء بطلقات البنادق احتفاء بقدومه، وقد أدرك توماس عندئذ ان من الخطر عليه ان يبقى في الشطرة مدة اطول. فارسل رسولا إلى الناصرية يطلب منها إرسال طائرات لنقله هو والكابتن هول فعاد الرسول من الناصرية يقول ان طائرتين ستصلان اليه صباح ٢٧ اب.

ويذكر الوردي حديث "لاحد الذين شاهدوا الحادثة من اهل الشطرة: ان الشيخ محمود ارسل إلى خيون رجلا اسمه عبد الخالق الطحان ليخبره بانه يجب ان يلقي القبض على الكابتن توماس قبل طيرانه، واذا لم يفعل ذلك فان زوجته "كشيمرة" ستكون طالقا. وقد وصل الرجل إلى المطار قبيل ركوب توماس الطائرة وصاح بـ.. ي خيون على مشهد من الناس: " ياخيون، يقول شيخ محمود كشيمرة طالق اذا تركت الحاكم ينهزم" فلما سمع خيون ذلك صرخ بالرجل منتهرا "ولي.. العن ابوك وابو شيخ محمود!".

"لمحات اجتماعية، ج٥، ق٢: ٨٣- ٨٤".

(١٤) البطنجة: موقع يبعد عن مركز الناصرية بثلاث ساعات وقعت فيه معركة حامية بين الاتراك والانكليز في ٣ ربيع الثاني ١٣٣٤هـ عند طلوع الشمس وقد أسفرت عن انتصار الاتراك ومعهم العرب على الانكليز، وكانت خسائر الانكليز تزيد على الالف قتيل. "كامل الجبوري"



03/66 23 72



للطباعة والنشر والتوزيع

لبنان - بيروت ص.ب 25/309 الغبيري
تلفاكس : 541980 1 961+ خلوي ، 03/445510
e-mail . daralrafidain@yahoo.com

مؤسسة مصر مرتضى للكتاب العراقي